عدد خاص

# المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الرابع - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٤

## القرن الخامس عشر الهجري

# الأبحاث والدراسات

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# حول الثقافة الإسلامية

ترجمة وتعليق

سليم مطر التكريتي

بغداد ـ الجمهورية العراقية

## ( ١ )

## الثقافة الاسلامية

## تنقل الفلسفة اليونانية الى اوربا

للدكتور

ارنست بنتس(١)

تمهيد

يستطاع ان يفهم فهما جيدا ، التأثير القوي جدا ، الذي احدثته الثقافة الاسلامية في الفلسفة المسيحية وفي اللاهوت المسيحي في اوربا ، وذلك عن طريق دراسة الاهمية العظمى للثقافة الاسلامية ، باعتبارها وسيطا للتراث الفلسفي اليوناني القديم ، وعلى الاخص فلسفة ارسطو ، وافلاطون ، والفلسفة الافلاطونية الحديثة .

ان من اهم الواجبات الملحة لتاريخ الافكار الاوربية ، ان يدرس المصير الباهر الذي صارت اليه الفلسفة اليونانية خلال الالف والخمسمائة سنة الاولى من العصر المسيحي . لقد كانت الكنيسة المسيحية هي التي استقبلت اولا ، وعلى نطاق واسع ، تدريس الفلسفة اليونانية القديمة ، معتبرة اياها

---

(١) هوامش وتعليقات المترجم

الدكتور ارنست بنتس Ernest Benz استاذ تاريخ المسيحية في جامعة ماربرغ بالمانيا . وقد القى بحثه هذا على شكل محاضرة بجامعة حيدر اباد بالهند في ٢٥ تموز ١٩٥٧ ونشر في مجلة « الثقافة الاسلامية » الدورية التي تصدر بالانكليزية في الهند العدد ٢ سنة ١٩٦١ .

وثنية . ولا يمكن ان تصلح لاغراض الدين المسيحي وبهذه الوسيلة نسيت اوتنوسيت ، ليس مؤلفات ارسطو وحده حسب ، بل وحتى مؤلفات الكثيرين من الفلاسفة الكبار الاخرين ، من اتباع الفلسفة الافلاطونية الحديثة ، ما بين القرنين الثالث والسادس للميلاد ، وذلك في غمرة التراث اللاهوتي للكنيسة القديمة .

ومن ناحية ثانية تقبلت الثقافة الاسلامية ، وحافظت تماما على هذا التراث الفلسفي القديم الذي نشأت عليه الكنيسة المسيحية ، تطورته بطريقة اصيلة وخلاقة جدا .

ففي مجرى الاتصالات الاخيرة بين الثقافة المسيحية والثقافة الاسلامية في صقلية ، وفي اسبانيا بصفة خاصة(٢) اعيد اكتشاف الكثير من الكتابات غير المعروفة لارسطو ، والتراث الفلسفي الافلاطوني الحديث ، وتم ايصالها الى اوربا . وهذه الظاهرة المثيرة جدا ، هي صلب الموضوع الذي اتحدث عنه الان .

---

(٢) رغم ما بذله كاتب المقال الدكتور بنتس من جهد في اظهار نفسه بمظهر المحايد المنصف ، الا ان التحيز بارز عنده في كثير من النواحي . فهو مثلا يتحدث عن التقاء الثقافة المسيحية بالثقافة الاسلامية في صقلية وفي اسبانيا ، والذي تؤكده المصادر التاريخية الغربية ذاتها ، ان العرب المسلمين عندما نشروا حضارتهم الزاهرة في هذين القطرين الاوربيين وفي اجزاء اخرى من فرنسا وايطاليا ، لم تكن هذه الاجزاء الاوربية قد عرفت قبلا اي نوع من انواع الثقافة بالمفهوم الصحيح للكلمة « الثقافة » . فلقد كانت اوربا غارقة الى النخاع في سبات عميق من الجهالة والامية الى درجة ان « شرلمان » وهو اعظم ملوك اوربا في ذلك العهد لم يكن قد تعلم بعد كيف يكتب اسمه .

انها لحقيقة غير معروفة في الغالب : هي ان تواجد الفلسفة اليونانية رغما عنها في القرن السادس من الغرب : اي من المكان الذي طردت منه باعتبارها وثنية ، الى آسيا الصغرى ، وسوريا ، وايران ، والجزيرة العربية ، وان تتلقفها الثقافة الاسلامية في هذه البلدان ، وان تعمل هناك بطريقة مهمة جدا ، على تطوير الفلسفة الاسلامية والمعتقدات الدينية الاسلامية .

فبانتشار الثقافة الاسلامية ذلك الانتشار الواسع في الغرب ، وعلى الاخص في صقلية واسبانيا ، عاد الفلاسفة ورجال اللاهوت المسيحيون ، وبعد انقطاع دام ثمانمائة او تسعمائة سنة : مرة اخرى الى التماس التجديد بالتراث المنسي ، والمتمثل بمدا للاداب الاغريقية في العصور التي سبقت العصور الوسطى .

ذلك ان التطور الدعش في الفلسفة ، ولكل العلوم في المدارس المسيحية ، وكذلك تطوير اللاهوت خلال العصور الوسطى ، قد تأثر تأثرا مباشرا وسريعا بهذا التماس الجديد مع التراث الفلسفي اليوناني الذي اهمل منذ زمن طويل ، حيث تم نقل العلوم الى الدارسين من المسيحيين على ايدي مفكري الاسلام العظام .

سوف نبدأ الحديث اولا عن هجرة الفلسفة اليونانية القديمة من الغرب الى الشرق الى ايران ، وبلاد الرافدين ، والجزيرة العربية . ونأخذ ثانيا بنظر الاعتبار ، العودة الثيرة التراث الفلسفي اليوناني القديم ، عن طريق الفلاسفة المسلمين من الشرق الى الغرب ، الى اسبانيا ، وان نهتم ثالثا ، وبصفة خاصة بتاريخ ترجمة آثار ارسطو خلال الفترة من القرن الثاني عشر ، حتى القرن الرابع عشر ، باعتبارها هي الاساس في تطور علم اللاهوت والفلسفة والعلوم المسيحية ، وذلك في الحلقات الدراسية اثناء العصور الوسطى .

## - ١ -

عرفت الثقافة الاسلامية ، في العصور الوسطى التراث الفلسفي اليوناني ، في صورة الفلسفة الافلاطونية الحديثة المتأخرة ، فقد كانت هذه الفلسفة الافلاطونية الحديثة هي الاداة لنقل فلسفة ارسطو وافلاطون القديمين الى المسلمين ، فمن المهم جدا ان نتذكر بان هذه الافلاطونية الحديثة المتأخرة ، كانت مزيج فيلا ، وبصفة عامة ، الى تحقيق الانسجام بين فلسفة ارسطو وفلسفة افلاطون .

وقد تم الابتعاد عن هذا الميل في التعليقات العظيمة التي وضعها هؤلاء الفلاسفة الافلاطونيون المحدثون على الكتابات الاصلية وحتى في التعليقات التي اجريت على كتابات ارسطو الاصلية : والتي وضعها كل من «الاسكندر الافروديسي» و (طيماوس) ( تمستيوس ) .

فهنا نرى ارسطو في صفة تفسير افلاطوني وهذا يفسر الكثير من التراث المتأخر للفلسفة اليونانية القديمة التي نقلها المسلمون كما سنرى ذلك .

كذلك ينبغي ان نقرر ان هذه الفلسفة الافلاطونية الحديثة ، لم تجد مصادرها في الفلسفة اليونانية القديمة حسب ، بل وجدت انها مصادر مهمة جدا في التراث الفلسفي والديني لدى الهنود والفرس .

مثال ذلك ان ( امونيوس سكاس ) المعلم المشهور لـ ( بلوتينوس ) مؤسس الافلاطونية الحديثة المعادية للمسيحية . وكذلك معلم « اوريجانس » الرئيس الشهير للمدرسة المسيحية في الاسكندرية(٢) ان « سكاس » هذا كان من اصل هندي ، ذلك لان كلمة «سكاس» تعني انه كان « سيكيا » . اي انه ينتمي الى قبيلة « سكيس Sakes » التي تقطن غربي الهند .

وهناك الكثير من المؤثرات المباشرة الاخرى للتراث الفلسفي الهندي على الفلسفة الافلاطونية الحديثة . فنحن نجد مثلا ذات الاهتمام الخاص بالتراث الفلسفي الهندي والفارسي لدى بلوتينوس . الذي صحب الامبراطور « غورديان III(٤) في حملته

(٢) بلوتينوس Plotinus اي الفاوطيني وهو من رؤساء مدرسة الاسكندرية المسيحية التي اسسها مرقس لتقاوم مدرسة الاسكندرية الوثنية وكان من اشهر رؤسائها بنتيوس واصله من صقليا وكان من اتباع المدرسة الرواقية ثم ارتد الى النصرانية ومات سنة ٢٠٠م .

ومنهم اوريجانس Origenus الذي ولد في الاسكندرية من ابوين مسيحيين وقد عهد اليه الاسقف ديمتريس البابا الثاني عشر في الاسكندرية بمقاليد هذه المدرسة ونتيجة لشقاق وقع بينه وبين هذا الاسقف هجر اوريجانس مصر والتجا الى مدينة قيصرية في فلسطين وهناك اسس مدرسة مماثلة .

والمعروف ان هذه المدرسة بقيت قائمة حتى منتصف القرن الخامس للميلاد .

(٤) الامبراطور غورديان : كان من اسرة لها صلتها بالحكم في روما وقد رفع الى وظيفة « قنصل » مرتين ، ثم عين بوظيفة قنصل اول على افريقيا . وعندما انتصب مكسمين العرش في روما اختير غورديان امبراطورا على روما لمقاومة المغتصب لكنه بقي يعيش في قرطاجنة بشمالي افريقيا وفي اول الامر حكم في الفترة ٢٣٨ - ٢٤٤م.

العسكرية على البند . على اهل الاعتزال تمسكوا بالحكماء الهنود .

اما النقطة الثالثة التي ينبغي اخذها بنظر الاعتبار فهي وجود خطين على الدوام للفلسفة الافلاطونية الحديثة يسيران جنبا الى جنب : اولهما الخط الذي يمثله الفلاسفة الذين اظهروا الفلسفة الافلاطونية الحديثة بالمعنى المضاد للمسيحية بصفة صريحة .

ولقد بلغ هذا الجناح المعادي للمسيحية ذروته في عهد الامبراطور جوليان(٥) الذي تأثر تأثرا عميقا بالفلسفة الافلاطونية الحديثة ، وكان منشيء نهضة معادية للمسيحية ، شملت الدين الوثني القديم على اساس وضع فلسفة افلاطونية حديثة للدين ، والذي حاول ان يجعلها كاساس لاهوتي مشترك للديانات الوثنية القديمة ، وللتفسير الفلسفي لمعتقداتها .

ومن الناحية الاخرى يتوفر لدينا ايضا جناح مسيحي للفلسفة الافلاطونية الحديثة . مثال ذلك مدرسة الاسكندرية التي تأثرت تأثرا عميقا بالفلسفة الافلاطونية وبالفلسفة الافلاطونية الحديثة معا ، والتي ادت الى تطوير الكثير من المناقشات اللاهوتية بتحد البرهنة ، والقول بنوع الالمام باستعمال الفلسفة الافلاطونية الحديثة من لدن الاساتذة المسيحيين .

يدخل القسم الاكبر من الظاهرة التي ندعوها باضفاء الوثنية على المسيحية ، ضمن تفسير المذهب المسيحي عن طريق العبارات الفيثية ، الميثالوجية ، الفلسفة الافلاطونية الحديثة .

فما عدا هذا نجد ايضا كثيرا من الاحاديث المدهشة لدى جناحي المدارس الافلاطونية الحديثة . فلدينا احاديث منذ ظهور المسيحية حتى يروز الموقف المعادي للمسيحية . مثال ذلك اموتيوس سكاس والامبراطور جوليان .

كذلك نجد كثيرا من الفلاسفة الافلاطونيين المحدثين . الذين كانوا في اول الامر ينتمون الى الجناح المعادي للمسيحية من الفلسفة الافلاطونية الحديثة . ما لبثوا ان تحولوا الى ايجاد تفسير مسيحي لتراثهم الفلسفي الافلاطوني الحديث .

ولقد اتسع الشق من هؤلاء الساقة . منهم « سنيوس » الذي اصبح اسقفا للكنيسة تورنائية(٦) كذلك يجب ان نتذكر ان تاريخ الفلسفة الافلاطونية الحديثة في العصر المسيحي ، لم يكن يشتمل على الصراع الفلسفي فحسب ، بل على الصراع الدموي بين كنيسة الامبراطورية البيزنطية من جهة ، والكنائس القومية الاخرى في الشرق الادنى من جهة اخرى .

وابتداء من القرن الثالث حتى القرن السادس ، كانت الافلاطونية الحديثة ممثلة في اربع مدارس : اولاها المدرسة السورية ورئيسها الاكبر جمبلكوس ، جمبلكوس ، التلميذ الشهير ، لفرفوريوس(٧) وكان هذا ، اي جمبلكوس ، على تماس وثيق بالديانات الوثنية القديمة ، وعلى الاخص الطقوس الغامضة منها ، وكان يريد ان يعرض اراءه الفلسفية كتفسير لاسرار المتقايد الدينية اليونانية القديمة والشرقية .

اما المدرسة الثانية فهي مدرسة برغامون(٨) التي انشأها ، ايديسيوس ، تلميذ جمبلكوس ، وكانت تربطه آراؤها وثيقا بالمدرسة السورية . وتنتمي مدرسة برغامون هذه هي الاخرى الى الجناح المعادي للمسيحية من الفلسفة الافلاطونية الحديثة .

ولقد كان اهم ممثل لرد الفعل الوثني لدى تلك المدرسة هو الامبراطور ، جوليان ابو ستانا ، ، الذي اشرت اليه سلفا ، والذي تعود له الفضل ، نتيجة انهيار وحدته الوثنية في تأثر الذين ينتمون الى المسيحية واللاهوتيين المسيحيين في ذلك العهد ، بالتيار الفلسفة الافلاطونية الحديثة بوجه عام .

ومن ثم تتوفر لنا مدرسة اثينا للافلاطونية

---

(٥) الامبراطور جوليان : تولى الحكم في الفترة ٣٦١ ـ ٣٦٣م وكان جوليان قد ثار ضد الامبراطور قسطنطينوس الذي قتل في احدى المعارك في تلك الحرب الاهلية وكان جوليان متشبعا بالافكار الفلسفية فاراد ان يضفي على حكمه صفة الفيلسوف الحاكم وكان من اشد المعادين للمسيحية ولذلك عمد الى اصلاح الديانة الوثنية وارساء قواعدها مجددا وكان شديد الطموح للتشبه بالاسكندر المقدوني في الفتوحات العسكرية .

(٦) تورنائية Kyrene في منطقة برقة بجمهورية ليبيا الحاضرة . ويقال ان تورنائية كانت تقع في ذات الموقع الذي تقوم فيه الآن مدينة « شحات » .

(٧) جمبلكوس Iamblichus ولد في كلسيس في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي وتوفي سنة ٣٢٢م وكان من مشاهير الفلسفة الافلاطونية الحديثة وكان يطلق على نفسه اسم كاهن الاسرار وصانع العجائب .

(٨) مدرسة برغامون Pergamon كانت تقوم في مدينة برغامون او برغاموس في ميسيا وتقع على نهر كايكوس وكانت عاصمة لملكة برغاموس ومقرا للملوك الابطاليين .

الحديثة ، وهي اشهر تلك المدارس تاطبة[9] . ذلك ان اثينا كانت ما تزال في ذلك الوقت ، تمثل الجامعة الرئيسة للثقافة الهلينية ، وتؤلف مركزا للتراث الارسطوطاليسي والافلاطوني معا .

كان رئيس مدرسة اثينا هو « بروقليس » (٤٨٥م) وهو المؤسس الحقيقي للفلسفة الافلاطونية الهلينية[10] .

وهناك أسماء كثيرة من الفلاسفة المشهورين الآخرين في مدرسة اثينا تلك . منهم فلوطرخس ، ومارينوس ، ودمسقيوس ، وسمبلقوس ، وزينوذيانوس[11] .

ولعل من توضيح كتابات هذه المدرسة تأثيرا هي التعليقات التي كتبها بروقلس على مؤلفات الافلاطون . وتعليقات كل من مارينوس وسمبلقوس على مؤلفات ارسطو .

وكانت مدرسة اثينا هذه معادية ايضا للمسيحية ، وهي في تقديرها للتراث الفلسفي اليوناني، تعلي تقديرا ممتازا للدين الوثني السالف، وعلى الاخص استغلت الديانة الهلينية القديمة ، التي قد تشبعها بالفلسفة الافلاطونية المحدثة التي كانت تؤمن بها هذه المدرسة .

اما المدرسة الرابعة للفلسفة الافلاطونية الحديثة فهي مدرسة الاسكندرية . ولقد سبق ان اشرنا الى التأثير الذي احدثته الفلسفة الافلاطونية المحدثة على المدرسة المسيحية التي كانت تعتمد التعليم بطريقة السؤال والجواب . والتي اسسها « بنتينوس » في الاسكندرية ، وكان من رؤسائها المتأخرين كلمنوس ، واوريجنس الذي جاء من بعده[12] .

ولكن الى جانب هذه المدرسة المسيحية التي وجدت في الاسكندرية كانت تقوم ايضا مدرسة غير مسيحية اكثر قدما ، ذلك لان الاتجاه الرئيس لم يكن ينطوي على دراسة القضايا الغيبية ، بل دراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية[13] .

فهذا التحول من القضايا الغيبية واللاهوتية الى العلوم التطبيقية كان ايضا من الاسباب التي جعلت الارتباط بالديانات الوثنية القديمة ، يتفكك بصفة تدريجية .

لقد أصبحت مدرسة الاسكندرية ، وبشكل بطيء ، كلية فلسفية حيادية ، ومن دون ان تعبر بحدة عن الميول الوثنية .

ففي ميدان الفلسفة تميزت مدرسة الاسكندرية هذه ، بالانسجام بين التراث الافلاطوني والتراث الارسطوطاليس ، وكان الممثل لتلك المدرسة هي السيدة الشهيرة هيبانيا التي لقيت حتفها سنة ٤١٥م على يد جمهور متطرف من المسيحيين ، وكان تلميذها هو سينيسيوس الذي اصبح فيما بعد اسقفا لبورنقية . وعلى هذه الشاكلة حدث هذا التبدل العجيب في الموقف تجاه الوثنية .

هناك اعضاء شهيرون من مدرسة الاسكندرية هذه منهم فيلوبونوس ، واولمبيودوروس الفيلسوف اللذان اشتهرا جدا بتعليقاتهما على كتابات الافلاطون وارسطو .

ولقد تحول احدهما ، وهو فيلوبونوس ، الى

---

(٩) مدرسة اثينا : هي اشهر مدرسة في التاريخ القديم واطولها عمرا عرفت باسم الاكاديمية وانشئت في زمن الافلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد ٣٢٧ ق.م وظلت تقوم بتدريس الفلسفة حتى النصف الاول من القرن السادس الميلادي (٥٢٩م) عندما اغلق الامبراطور جستنيان ابوابها، وهاجر اساتذتها الى بلاد فارس . وكان من اشهر تلامذة هذه المدرسة هما تيثاوس وايدوكسس .

(١٠) بروقلس : Proclus ولد في بيزانس سنة ٤١٢م وتوفي في اثينا سنة ٤٨٥ درس الفلسفة ارسطي في الاسكندرية ثم رحل الى اليونان للالتقاء بالفيلسوف الوطرخس الاثيني مؤسس الافلاطونية الحديثة وتلقى العلوم عن سريانوس ثم خلفه في رئاسة مدرسة اثينا .

(١١) الوطرخس Plotarchus من مشاهير مؤسسي الفلسفة الافلاطونية الحديثة . وقد وضع عددا من الكتب والمقالات الفلسفية منها كتاب الاراء الطبيعية ، وهو خمس مقالات يضم اراء الفلاسفة في الطبيعيات وقد نقله الى العربية « قسطا بن لوقا البعلبكي » وكتاب « النفس » وكتاب القلب وكتاب الرياضة وكتاب مداراة العدو وغير ذلك .

(١٢) يقصد بذلك المدرسة الوثنية التي انشئت في الاسكندرية الى جانب المدرسة المسيحية فيها ، وكانت هذه المدرسة الوثنية قد انشئت على يد ( امونيوس ) الذي اعتنق المسيحية اول الامر ثم نبذها وتنكر لها فيما بعد وتوفي سنة ٢٤١ م . وهذه المدرسة متأثرة بالافلاطونية المحدثة الى حد كبير .

(١٣) مدرسة الاسكندرية : انشئت هذه المدرسة بمدينة الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد وظلت قائمة حتى القرن الخامس بعد الميلاد ، وفي عهد البطالسة الذين حكموا مصر بعد وفاة الاسكندر الكبير . وقد وضع كل من ديمتريوس وسطراطون اسس هذه المدرسة وكانت مدرسة ثقافية مزودة بمتحف وهو عبارة عن معبد فيه تماثيل بنات (زيوس) التسع اللواتي يرمزن الى الشعر والموسيقى والشعر والرقص والتمثيل وغيرها وكان من اشهر علمائها اقليدس وارخميدس وبطليموس صاحب المجسطي واشتهرت المدرسة بمكتبتها الكبرى التي اسسها ديمتريوس سنة ٢٨٤ ق.م .

المسيحية . ونشر بعد تحوله كتابات فلسفيه تعكس اراءه في عقيدته الدينية الجديدة .

وعلى الرغم من الفرق في الوقف الديني بين مدرسة الاسكندرية ومدرسة اثينا ، كانت العلاقات الشخصية بين اعضاء المدرستين قائمة ، من ذلك ان كثيرا من الاعضاء المشهورين في مدرسة الاسكندرية كانوا قد درسوا في مدرسة اثينا . فقد كان هيرو وليس من مدرسة الاسكندرية تلميذا لسيريانوس من مدرسة اثينا . وكذلك اميانوس من مدرسة الاسكندرية ايضا تلميذا لبروقلس من مدرسة اثينا .

ومن ناحية اخرى نقل كل من دمسقيوس وسمبلقوس ، وهما فيلسوفان من مدرسة اثينا ، طبعا بين ـ زمادة طويلة ـ لاماتوس من مدرسة الاسكندرية .

حدثت الازمة الرئيسة لكل هذه المدارس الافلاطونية الحديثة بعد انهيار الردة الوثنية في عهد جوليان . ففي سنة ٥٢٩م سعى جوستنيان(١١) وهو من اشهر الاباطرة المسيحيين في بيزنطية ، على ان ينفصل بصفة محددة ونهائية عن التقليد الفلسفي الهيلينية الوثنية السالفة ، ولذلك اقدم على غلق جامعة اثينا التي كانت مازال حتى ذلك الوقت تعتبر مركز الفلسفة اليونانية القديمة القائمة على اساس العقيدة الوثنية القديمة .

وقد صودرت اموال جامعة اثينا هذه . وفي هذه الفترة بالذات ، اعتبرت الفلسفة الافلاطونية الحديثة من قبل السلطات المسيحية العليا في بيزنطية بانها هي الوثنية بعينها .

احدث اغلاق جامعة اثينا نتائج مهمة ، ذلك ان اساتذة هذه الجامعة ، وعلى سبيل المثال دمسقيوس وسمبلقوس وخمسة اخرون غيرهم ، قد هاجروا الى بلاد فارس سنة ٥٣١م ولقد لقي الملك كسرى الاول ، صديق الثقافة والمدنية البليغة حمايته على هؤلاء اللاجئين الى مملكته ، حيث سمح لهم ان يواصلوا دراساتهم وتاليفهم ، وبهذه الوسيلة وصل التراث الفلسفي اليوناني الى الشرق .

ولقد انتقل التراث الروحي لاشهر مركز الثقافة الهيلينية الى آسيا الصغرى ، فاوجد هناك مراكز جديدة للفلسفة والعلوم ، بحيث استطاع المهاجرون المتعلمون من الغرب ، ان يحافظوا على معارفهم القديمة وقد حمل هؤلاء المهاجرون معهم الكثير من المخطوطات والنصوص الاصلية للفلسفة اليونانية ، وبالاخص فلسفة ارسطو وافلاطون ، وكذلك وصل الكثير من كتابات المتاخرين من الفلاسفة الافلاطونيين المحدثين ، الى فارس .

ومن ناحية اخرى ادى اغلاق جامعة اثينا ، الى ردة فعل مباشر لدى المدارس الفلسفية الافلاطونية الحديثة القائمة انذاك . فلقد تم من قبل اغلاق المدرسة السريانية ومدرسة برغامون ، ولم يبق سوى مدرسة الاسكندرية وحدها لتواصل دراساتها عن طريق اضفاء المعتقدات المسيحية على مناهجها ، لانها وجدت لها من قبل موقعا جديدا تجاه الدين المسيحي والكنيسة .

وقد انتقل سمبلقيوس من الاسكندرية الى القسطنطينية وشرع ينشر التراث الافلاطوني الحديث لمدرسة الاسكندرية في جامعة بيزنطية الجديدة ، كما انه اوجد تراثا للفلسفة والعلوم اليونانية في العاصمة المسيحية . وفي مركز الثقافة المسيحية ، وبذلك قامت المعتقدات المسيحية البيزنطية على اساس الفلسفة والعلوم اليونانية . وان كان ذلك الاساس محدودا جدا .

لقد وصفنا الطرق التي دخل بها التراث الفلسفي اليوناني الى آسيا الصغرى ، وسوريا ، وايران ، والجزيرة العربية .

اما الان فان الثقافة الاسلامية في سوريا والعراق قد اصبحت في تماس روحي مباشر مع تراث اليونان الفلسفي .

ولم تكن الفلسفة اليونانية ، في الواقع ، هي التراث الوحيد الذي اثر في الفلسفة الاسلامية . فهناك ايضا تاثيرات من الفلسفة الهندية . وبعض تاثيرات من جانب المعتقدات الروحية القديمة ، والفلسفة الزرادشتية ، على اننا لا ناخذ هنا بنظر الاعتبار سوى التراث اليوناني .

لقد كان اساتذة الفلسفة الاسلامية العظام يدركون جيدا اهمية التراث الفلسفي اليوناني ، ولذلك راحوا يسعون منذ البداية الى ان يترجموا ، بكل حماسة ، مؤلفات الفلاسفة اليونانيين ، في

---

(١١) جوستنيان امبراطور روما امتنق المسيحية واقدم على اغلاق مدرسة اثينا ( الاكاديمية ) لانها كانت في نظره تبث التعاليم الوثنية . ولم يشا اساتذة تلك المدرسة ان يخضعوا للاضطهاد فهاجروا الى بلاد فارس ، وكانت تدين بالمجوسية وهي نوع من الوثنية ، حيث رحب بهم كسرى انوشروان ملك فارس وانزلهم في بقعة كانت معسكرا للجند اشتهرت باسم « جندي سابور » حيث استانفوا نشاطهم الفلسفي هناك .

كل وقت كانوا يظلمون فيه على النصوص الاصلية لتلك المؤلفات .

ان تاريخ هذا النشاط في ميدان الترجمة لم يدون بعد[١٥] ولكن الشيء المؤكد هو انه ، في الفترة ما بين سنة ٨٥٠ وسنة ٩٠٠ ميلادية ، توفرت لدى الفلاسفة المسلمين الكبار ، واساتذة المدارس في البصرة وبغداد ، معرفة مفصلة بمؤلفات ارسطو وافلاطون ، وكذلك بالتعليقات العظيمة التي وضعها الاسكندر الافروديسي وطيمائيوس ، وكذلك تعليقات كل من ناوفرسطيس ، وسريانوس ، وامونيوس ، وفورفيريوس ، وعلى الاخص بثوتينوس .

في مقدورنا ان نميز ثلاثة عصور من نشاط الترجمة ذاك ففي عهد المأمون ( ٨١٢ ـ ٨٣٣م ) حاول فيلسوف مسلم هو « ابن البطريق »[١٦] ان يشيع ترجمات كانت تلتزم التزاما مطلقا باعادة صحيحة للنص اليوناني الاصلي ، الامر الذي جعل مثل هذه الترجمة العربية غير مستساغة وغير رشيقة .

بعد ذلك الوقت بثلاثين سنة اسس حنين ابن اسحاق ، الذي عرف لدى الغرب باسم « يوحناتيوس » مدرسة للمترجمين في العراق[١٧] ظلت تواصل عملها على يد كل من ابنه اسحاق بن حنين ، وابن اخته حبيش بن الحسن . وكان السريان والنساطرة هم الذين استخدموا الترجمات السريانية القديمة لفلاسفة اليونان ، بمثابة نصوص يونانية اصلية للمؤلفات الفلسفية ، التي كان عليهم ان ينقلوها الى اللغة العربية .

لقد قام « قسطا بن لوقا » وهو من بعلبك ، بوضع حوالي اربعمائة وثمانين ترجمة لكتابات فلسفية دونها فلاسفة يونانيون من امثال فاوثرخس واقليدس ، واخرون الاسكندري ، بينما قام حنين بن اسحق بترجمة المؤلفات الطبية لجالينوس .

يأتي على راس العصر الثالث للترجمة تلميذ الفيلسوف الفارابي ونعني به « يحيى بن عدي »[١٨] المنطقي ، ولقد كان من مساعديه في ذلك كل من ابي بشر متي بن يونس ( المتوفى سنة ٩٤٠م ) « الناطلي »[١٩] المتوفى سنة ٩٩٠م .

وهناك مترجمون شهيرون اخرون من هذا العصر من بينهم « ابن زرعة »[٢٠] المتوفى سنة ١٠٠٨م وابو الخير الحسن بن الخمار[٢١] .

ولقد غدت هذه المجموعة من المترجمين مهمة جدا بالنسبة الى التطور المتاخر الذي اصاب الفلسفة المسيحية ، وذلك لان غالبية هذه الترجمات قد جلبت الى اسبانيا ، حيث بدات ترجمتها هناك الى اللغة اللاتينية .

ولقد كانت هذه الهجرة العجيبة ، لسوء الحظ ، سببا في حدوث تشويهات واضحة وسوء فهم في النصوص الاصلية لكتابات ارسطو وغيره من الفلاسفة الاخرين . ذلك لان النص العربي لكتابات الفلاسفة اليونانيين الذي وصل الى اسبانيا ، قد ترجم في اسبانيا كلمة فكلمة الى اللغة القشتالية ،

---

(١٥) للاطلاع على اهمية هذا النشاط في ميدان الترجمة نحيل القارىء الى مقالتنا المعنونة « بيت الحكمة في بغداد وازدهار حركة الترجمة في العصر العباسي » المنشورة في الجزء الرابع من المجلد الثامن من مجلة « المورد » ١٩٧٩ .

(١٦) ابن البطريق : لم يكن مسلما كما ذكر الكاتب ذلك خطا وانما كان من السريان منما بالترجمة امينا عليها ، ترجم العديد من مؤلفات ارسطو في الفلسفة ، وبعض كتب ابقراط في الطب ومن اهم ترجماته كتاب السياسة والاثار العلوية لارسطو ، وكتاب ابقراط عن الموت ، وكتاب الاربعة لبطليموس .

(١٧) اخطا الكاتب لذكر ان مدرسة حنين بن اسحق للترجمة كانت في سوريا والحال انها كانت في بغداد ( انظر مقالتنا عن « حنين بن اسحق : شيخ المترجمين العرب » في مجلة « العربي » الكويتية لسنة ١٩٦٨ ) .

(١٨) يحيى بن عدي المنطقي التكريتي : ولد في تكريت ونشا فيها وكان يعقوبي المذهب ، انتقل الى بغداد وعمل مترجما في بيت الحكمة وتلمذ على يد كل من ابي بشر متي بن يونس من كبار المترجمين ، والفيلسوف الفارابي الذي درس عليه المنطق والفلسفة . وكان يحي يحذق السريانية والعربية ويحسن النقل عنهما . وقد ترجم واصلح الكثير من الترجمات التي وضعت لمؤلفات ارسطو والفلاطون ، والاسكندر الافروديسي وامونيوس وغيرهم .
وقد توفي يحي سنة ( ٣٦٤هـ ـ ٩٧٢م ) ودفن في بيعة « دار توما » بقطيعة الدقيق في بغداد .

(١٩) الناطلي : الحسين بن ابراهيم بن الحسن البطرني الناطلي من المترجمين المتاخرين كان موجودا في منتصف القرن الرابع الهجري ( القرن العاشر الميلادي ) اشتهر عنه انه وضع ترجمة دقيقة لكتاب الحشائش لدسقوريدس .

(٢٠) ابن زرعة : ابو علي عيسى بن اسحاق بن زرعة كان من النحلة اليعقوبية اشتغل بالفلسفة والطب في بغداد وعمل في ميدان الترجمة ولد ببغداد سنة ٣٣١هـ ـ ٩٤٢م وتوفي بها سنة ٣٩٨هـ ـ ١٠٠٨م ترجم بعض كتب جالينوس وغيرها وكان يجيد النقل عن اليونانية .

(٢١) ابو الخير الحسن بن الخمار بن سوار بن بهرام بغدادي النشاة درس الفلسفة والمنطق على يحي بن عدي التكريتي ولد سنة ٣٣١هـ ـ ٩٤٢م كان لمة في الاطلاع على علوم المنطق وكان يترجم عن السريانية وله عدد من التصانيف ومن اشهر مترجماته الاثار العلوية لارسطو .

ومن ثم نقل من القشتالية الى اللغة اللاتينية. وكانت نتيجة ذلك ان الترجمة اللاتينية لمؤلفات ارسطو هي اللغة الرابعة او الخامسة التي ترجم اليها النص الاصلي .

ولذلك لا نندهش اذ نجد ، في خضم التغيير الذي طرأ على هذه اللغات المختلفة ، ان الحصيلة النهائية كانت ، في بعض الاحيان ، عبارة عن سلسلة من سوء الفهم والخطأ .

ومع هذا فان الكثير من مؤلفات ارسطو ، والفلاسفة الافلاطونيين المحدثين ، والتي كانت مجهولة تمام الجهل لدى اوربا المسيحية ، قد عادت الى اوربا بهذه الوسيلة من ايران ، وسوريا ، والجزيرة العربية ، وشمالي افريقيا ، واسبانيا ، على ايدي العلماء المسلمين .

لم تكن الكتابات الفلسفية لفلاسفة اليونان القدامى اولى النتاجات في سلسلة ترجمة النصوص اليونانية القديمة ذلك لان اكتشاف الكتابات الطبية لليونانيين ، ولا سيما ابقراط وجالينوس ، هي التي اعطت اول دفعة لنشاط هائل من الترجمة في الفترة ما بين سنة ٨٠٠م وسنة ٨٢٠م .

غير ان تلك الفترة لم تكن سوى البداية في سبيل اوسع التراث العلمي اليوناني القديم . ولذلك وجدنا كتاب «الفهرست»(٢٢) يذكر انه في حدود سنة الف للميلاد ، اصبحت كتابات اليونانيين متوفرة لدى كل الايدي(٢٣) .

نجم عن غزو الفلسفة والعلوم اليونانية ، رد فعل شديد جدا من جانب المدافعين عن التراث العقائدي الصحيح للاسلام ، الذين اعتبروا ذلك الغزو بمثابة بدعة حقيقية .

وهكذا توفر لدينا ذات الصراع بين العقيدة الدينية السلفية ، وبين الاتجاه الانساني التحرري الاوسع للفلسفة الاسلامية . مثلما شهدنا ذلك قبلا في الكنيسة البيزنطية . وشهدناه اخيرا في العصور الوسطى المسيحية في القارة الاوربية .

---

(٢٢) ابن النديم : محمد بن اسحق بن النديم لم يعرف تاريخ مولده وكل ما عرف عنه انه كان من المعتزلة وربما كان ورّاقا او من النساخين في بيت الحكمة وقد توفي سنة ٣٨٥ هـ وله غير الفهرست « كتاب التشبيهات » .

(٢٣) يدلل على هذا القول ما اورده محمد بن اسحق ابن النديم في كتابه « الفهرست » من اسماء الكتب التي ترجمت من اليونانية الى العربية ، في ذلك العهد الذي عاش فيه وهو القرن الرابع الهجري ، فضلا عن الشروح والتعليقات العديدة التي وضعها الفلاسفة العرب عن تلك المؤلفات .

ولقد كان من نتائج هذا الصراع بين السلفيين من المسلمين ، وبين الفلاسفة المسلمين ذوي التفكير التحرري الواسع ، ان وجدنا الكثير من الفلاسفة المسلمين يحاولون ان يلبسوا التراث الفلسفي اليوناني ثيابا اسلامية ، وان يستبدلوا المؤلفات اليونانية بمؤلفات اسلامية لم يأخذوا فيها بالاراء اليونانية كنظام ، وانما كانوا يختارون بعضا منها في تفسيراتها الفردية .

## - ٢ -

لابد لي ان اذكر بعض الشيء عن ترجمة مؤلفات ارسطو . ولسوف اشير هنا اول الامر ، الى ظاهرة اخرى جد مهمة . لقد بينت في البداية ان كتابات ارسطو قد حافظ عليها الفلاسفة الافلاطونيون المحدثون . غير ان هذه الكتابات لم يتم حفظها بمعناها الاصلي الخالص . وانما بتفسير افلاطوني حديث يوفر التوفيق بين التقاليد الارسطالية والافلاطونية ففي كثير من الحالات كانت الاراء الافلاطونية الحديثة ، تستخدم لغرض تطوير المعتقدات الرمزية . ولقد تم اختيار ارسطو نفسه لاغراض التعبير المنطقي ، والتفسيرات المتعلمة للتجارب الرمزية .

فهذا الاتجاه العام الافلاطوني الحديث المتأخر ما بين القرنين الرابع والسادس ، والذي عمل على اشراك الفلسفتين الارسطالية والافلاطونية ، والتوفيق بينهما في نظام ميتافزيقي ، هو وحده الذي يستطيع ان يفسر الحقيقة المهمة وهي : اننا نجد في التراث الاسلامي بعض الكتابات المنسوبة الى ارسطو قد اثرت تاثيرا عميقا في الفلسفة الاسلامية . كما اثرت فيما بعد في الفلسفة المسيحية والعقيدة الدينية خلال العصور الوسطى .

ولم تكن هذه الكتابات هي الكتابات الاصلية التي وضعها ارسطو حقا .

ان اول ما عرفه من هذه المؤلفات او الكتابات هو ما عرف باسم فلسفة الالهيات لدى ارسطو . لقد استبشر اللاهوتيون المسيحيون خلال العصور الوسطى كثيرا عندما اكتشفوا في التراث العربي الذي اتصلوا به في اسبانيا ، المزيد من مؤلفات ارسطو التي لم تكن معروفة بصفة نهائية في التراث المسيحي حتى ذلك الوقت .

ولم يشك هؤلاء في ذلك ، بل على النقيض ، كانوا اوسع امتنانا اذ اكتشفوا بين هذه المؤلفات

الجديدة لارسطو كتابا مهما من كتبه : مثل كتاب المعتقدات الالهية هذا .

والواقع ان هذا الكتاب ، وكما برهنت الدراسات الحديثة مؤخرا ، هو مختصر من الكتاب الرابع والكتاب الخامس والكتاب السادس ، من مؤلف «فلوطين »[٢٤] المعروف باسم « التاسوع Plotins » .

لقد كان عبدالمسيح بن عبدالله بن ناعمة[٢٥] وهو نسطوري من مدينة حمص ، هو الذي وضع هذا التلخيص للامير احمد بن الخليفة المعتصم . ومن المحتمل كثيرا ان هذا النسطوري السوري لم يترجم هذا التلخيص عن النسخة اليونانية لافلوطين ، وانما عن ترجمة سريانية للكتابات الفلسفية التي وضعها ذلك الفيلسوف .

كما ان الفلسفة المسيحية خلال العصور الوسطى تعتبر ارسطو بمثابة ابيقور مسيحي ، وبالتالي اعتبر اكتشاف كتاب « نظرية ارسطو في اللاهوت » بانه نوع من الوحي . ولهذا استخدم الكتاب الذي ترجم الى اللاتينية ، بمثابة مختصر رئيسي من لدن جميع معظم المدارس اللاهوتية المسيحية في القرون الوسطى .

يتضمن هذا الكتاب ، الآراء الاساسية للفلسفة الافلاطونية الحديثة ، مثل فكرة انبثاق الاشياء من المنبع الواحد ، وعودة الجميع المنبثق الى الواحد الاصلي ، ومذهب السبب الاول الذي يؤلف اصل وحدة العالم والاشكال الخالصة ، او النموذج الاصلي لكل الاشياء ، فكرة روح العالم ، وسلسلة الانبثاقات التي تصدر من الواحد الاول الى الاخير ، وهي السلسلة التي تعاني فيها الانبثاقات او الفيوض فقدان الكمال بنفس النسبة تقريبا تمس المادة .

كل هذه الاراء التي تعد اراء افلاطونية حديثة بشكل نموذجي ، قد دخلت الى الفلسفة المسيحية والى اللاهوتية التوحيدية تحت اسم ارسطو ، وتمت حمايتها بنصوص ارسطو حتى القرن الخامس عشر ، حين استطاع بعض الدارسين المسيحيين ان يبرهنوا على ان تلك الكتابات كانت منتحلة .

ففي سنة ١٥١٩ تم طبع كتاب نظرية ارسطو اللاهوتية في روما على اساس انه من المؤلفات الاصلية للفيلسوف الستاجيري ، اي ارسطو نفسه .

اما الكتاب الثاني الذي نشير اليه هنا فهو « كتاب الاسباب Liber de Causis » والذي كان يعتبر هو الاخر خلال العصور الوسطى بانه من المؤلفات الاصلية لارسطو .

فهذا الكتاب في الواقع تلخيص لكتاب افلاطوني محدث وضعه « بروقليس » بعنوان « المذهب الثيولوجي Institutio Theologica » وقد اشار هذا الملخص الى الشرق احد العلماء المسلمين الذي عاش في حدود سنة ٨٥٠م فيما وراء نهر الفرات في بلاد الرافدين[٢٦] ، « الفلسفة الثيولوجية Stoicheiosis Theologik » الذي وضعه تلميذ بروقليس .

والذي نعرفه ان « كتاب الاسباب » قد وضع اصلا باللغة العربية . وهنا نجد ذات الظاهرة وهي ان الفلسفة الافلاطونية الحديثة عن الكائن الاول ، قد ظهرت ، تحت عنوان ارسطو ، سوية مع عالم الفيض ، مع عالم الافكار ، مع روح الطبيعة وما شاكلها .

وككتاب منسوب الى ارسطو ، ترجم هذا الكتاب في طليطلة على يد عالم اسباني هو جرهارد الكريموني احد الاعضاء النشطين جدا في مجلس المترجمين بطليطلة ، والذي سنذكر عنه بعض الشيء فيما بعد[٢٧] .

وعلى هذه الشاكلة اكتشف العلماء من امثال « أبرتس ماغنوس » و « توما الاكويني » ان المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب المشهور جدا ليس هو ارسطو حقا . ولكن على الرغم من شكوكهم هذه ، كان كتاب الاسباب يعتبر بصفة عامة احد المؤلفات الاصلية التي وضعها الفيلسوف الستاجيري رغم طبعها باعتبارها واحدة من الكتابات الاصلية التي

---

(٢٤) هو المعروف باسم « انيد Ennéades » .

(٢٥) اخطأ الكاتب لذكره باسم ( ناعمة بن عبدالمسيح ) . وكان عبدالمسيح هذا من مدينة حمص عاش في بغداد وعمل في ميدان الترجمة وترجم في حدود سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م للخليفة المعتصم كتاب التربوبة لارسطو وراجع الكندي تلك الترجمة ويعتبر هذا الكتاب هو اصل تاسوع الفلوطين الذي شرحه فرفوريوس .

(٢٦) ان العالم الذي اكتشف هذا الكتاب هو محمد بن موسى ابن شاكر المنجم الذي اشتهر هو واخواه احمد والحسن بانفاق الاموال الطائلة على اقتناء المؤلفات اليونانية وبذلك المبالغ الاجور للمترجمين مقابل ترجمتها الى اللغة العربية .

(٢٧) جرهارد الكريموني : من مدينة كريمونا بالقرب فهو ايطالي اللسان والمنشأ وان كان قد توطن بلاد اسبانيا وشارك مشاركة عظيمة في ترجمة اشهر الكتب الفلسفية التي نقلها العرب عن اليونانيين والشروح والتعليقات التي وضعوها عنها ومن اهمها شروح وتعليقات كل من ابن رشد ، وابن سينا ، والفارابي ، وابن باجه وغيرهم .

رغمها ذلك الفيلسوف حتى بداية القرن السابع عشر .

على ان الفلاسفة واللاهوتيين المسيحيين اثناء القرون الوسطى ، لم يقتبسوا مثل هذه المؤلفات الاصلية للفلسفة اليونانية القديمة ، او المؤلفات التي يعتقدون بانها اصلية حسب ، بل اقتبسوا ايضا الكثير من الكتابات التي وضعها بعض الفلاسفة المسلمين الكبار .

كان طبيعيا انه لم تكن لدى المترجمين المسيحيين فكرة سائبة عن القيمة الحقيقية لاولئك الفلاسفة المسلمين ، ولثقافة الاسلامية ذاتها . ذلك ان هؤلاء المترجمين المسيحيين قد فهموا هذه الكتابات الاسلامية طبقا لوجهة نظرهم الفلسفية واللاهوتية ولحضارتهم المسيحية[٢٨] .

سأتناول الآن بعض شخصيات الفلسفة الاسلامية في العصور الوسطى . وسأفعل ذات الشيء بالنسبة الى تناثانهم كمترجمين او مفسرين للفلسفة اليونانية .

فمثل هذه الشخصيات تضم الكندي و «ابن مسرة»[٢٩] والفارابي، وابن سينا ، والغزالي، وابن باجه ، وابن طفيل، وابن رشد .

ولست استطيع ان اعرض هنا صورة مفصلة لكل هؤلاء الاساتذة العظام من المسلمين في العصور الوسطى ، وانما ساكتفي بالقول ـ كما سبق ان اشرت اليه في البداية ـ بان كل هؤلاء الفلاسفة قد نالوا الثقة والاهمية بالنسبة الى المعتقدات اللاهوتية المسيحية خلال القرون الوسطى ، على اساس الحقيقة الواقعة وهي انهم هم الذين ترجموا مؤلفات ارسطو ووضعوا لها الشروح والتفاسير ، وان الدارسين المسيحيين كانوا يثمنون عاليا تلك الكتابات الفلسفية التي وضعها هؤلاء الفلاسفة المسلمون باعتبارها ترجمات حقيقية لفلسفة ارسطو .

وعلى الرغم من النظرة المنطقية التي تعتبر هؤلاء المفكرين المسلمين هراطقة ، الا ان الدارسين المسيحيين تقبلوهم كمترجمين حقيقيين لذلك الفيلسوف الكبير ، والذي يبدو من وجهة النظر العقائدية بانه كان يمثل الاساس الفلسفي الوحيد للمعرفة المسيحية[٣٠] .

كان الكندي من اصل عربي[٣١] عاش في البصرة ومن ثم في بغداد وتوفي سنة ٨٢٢ وكان يعد في ايامه بانه التلميذ الاول الحقيقي لارسطو ، ويقول عنه « ابن جلجل » وهو طبيب مسلم عاش في اسبانيا في حدود سنة ٩٥٠ ، بانه لايوجد فيلسوف آخر لعقب ارسطو بصفة دقيقة سوى الكندي . وكان اللقب الذي اطلق عليه هو فيلسوف العرب وهذا يمتد الى « الفيلسوف » اللقب التقليدي لارسطو . وهذا اللقب ذاته ، اي فيلسوف العرب ، يجعل الكندي اول مفكر في التراث اليوناني في الحضارة الناطقة باللغة العربية .

ولقد اضطهد السلفيون المسلمون الكندي ، اضطهادا شديدا في فترة العودة الى العقيدة السلفية ايام الخليفة المتوكل على الله. فقد صودرت كل كتب الكندي ، واتهم بانه مفكر يوناني وثني . لكنه استطاع اخيرا ان يبرهن على سلفيته وان يسترجع مكتبته المصادرة .

اما الفارابي الذي توفي سنة ٩٥٠ فقد اولى اهتماما خاصا للجانب الميتافزيقي والمنطقي من الفلسفة .

وكان لقبه هو « المعلم الثاني » وهذا اللقب يضعه في مستوى واحد مع ارسطو الذي كان يلقب بالمعلم الاول ، ومع ابن سينا الذي كان يلقب بالمعلم الثالث ، او ارسطو الثالث .

درس الفارابي بصفة خاصة كتابات ارسطو المنطقية ، وادخل في الحضارة الاسلامية التدريب المنتظم للتفكير على اساس منطق ارسطو .

---

(٢٨) لم تكن للمسيحية حتى بعد سقوط الحكم العربي الاسلامي في اسبانيا ، اية حضارة يعتد بها .

(٢٩) هكذا اورده الكاتب Massignon والمقصود به «ابن مسرة» وهو محمد بن عبدالله بن مسرة الجبلي الاندلسي . فيلسوف تعمق في دراسة الفلسفة اليونانية ، ووضع له ملهبا فلسفيا يقوم على اساس تجيبات الفيلسوف اليوناني انبالقلس ، وقد اثارت اراؤه فقهاء الاندلس في عصره فاعتزل هو وبعض تلامذته في ضيعة منعزلة بجبل قرطبة ، ولكن ذلك لم ينجه من مهاجمة فقهاء المالكيه ، فاستطاع الافلات منهم بان خرج حاجا الى مكة ، ثم عاد الى الاندلس بعد ان تولى الحكم فيها عبدالرحمن الثالث الاموي سنة ٣٠٠هـ ـ ٩١٢م واستانف التعليم في مشكلة ومع ذلك احرقت مؤلفاته ثانية في حياته ، وتوفي سنة ٣١٩هـ ـ ٩٣١م .

(٣٠) يبدو التعصب المقيت للكاتب المغفل وشبيهه الذي لا يقوم على اساس ، واضحا هنا في اعتباره ارسطو ممثلا للمعرفة المسيحية « كذا ! ! » في حين ان ارسطو كان وثنيا عاش ومات قبل ان تظهر المسيحية وتنتشر .

(٣١) هذا بعض من دسائس المستشرقين ومفترياتهم فهم يعمدون دوما الى التشكيك بعروبة بعض العلماء باشارتهم الى الاصل .

هذا الجانب من التراث الفلسفي اليوناني لما يزل في ذلك الوقت مجهولا تماما بالنسبة الى الثقافة الاسلامية ، التي كانت تميل اكثر فاكثر نحو البواعث الغامضة للنظام الفلسفي الافلاطوني الحديث .

ولقد كان الفارابي نفسه مفكرا غامضا ؛ وبالتقي توجيهة المنطقي مع معظم الافكار المجسمة للافلاطونية الحديثة .

وكان ابن سينا يحتلي باحترام رفيع تماما لدى الدارسين المسيحيين في القرون الوسطى . فلقد كان ابن سينا انشط وسيط في نقل الفلسفة اليونانية الى العالم الاسلامي .

كان ابن سينا قد ولد في ولاية بخارى سنة ٩٨٠ودرس اللاهوت والفلسفة وعلوم الطب . وكانت دراسته الفلسفة في اصفهان . ووضع مؤلفات عن بعض القضايا التي تناولها ارسطو في كتاباته . وقد تجاوز عدد الكتب التي الفها المائة كتاب . وكانت وفاته بهمدان في شهر تموز سنة ١٠٣٧

والفرق الاساسي بين ابن سينا والفارابي هو ان ابن سينا كان قد تخلى عن الكثير من المبادىء الافلاطونية الحديثة ، وعاد الى مبدأ ارسطو الاصلي وعلى الاخص في كتاباته في المنطق .

ويحمل كتابه الرئيس عنوان « كتاب الشفاء » وهو عبارة عن موسوعة فلسفية كبرى تقع في ثمانية عشر مجلدا مقسمة الى اقسام اساسية اربعة هي المنطق ؛ والطبيعيات ؛ والرياضيات والغيبيات ( الميتافريقيا )

ومن المهم ان نرى بان هذه الموسوعات الكبرى كانت غير معروفة في الشرق غالبا ؛ لكنها ظفرت بنجاح هائل بين العلماء المسيحيين ؛ بعد ان تمت ترجمتها الى اللغة اللاتينيةولقد ترجمت هذه الموسوعة الكبرى على يد جرهارد الكريموني نفسه والذي سبق ان اشرت اليه باعتباره مترجما لتراث فلاسفة مسلمين آخرين .

كان ابن سينا يعد واحدا من الفلاسفة الثقاة خلال العصور الوسطى برمتها . ولقد طبعت الترجمة اللاتينية لمؤلفاته بعد اختراع طباعة الكتب وظهرت في طبعات متعددة .

وقبل نهاية القرن الثاني عشر ترجمت بعض مؤلفات ابن سينا الى اللغة اللاتينية على يد كل من جرهارد الكريموني ، ودومنكوس غندسالينوس . وابن داود العبري ، ولاسيما مؤلفاته في المنطق والطبيعة والميتافريقيا .

ولقد عمل دومنكوس غندسالينوس يدا بيد مع ابن داود العبري بطريقة مؤداها ؛ ان ابن داود العبري الذي لم يكن يعرف سوى العربية والقشتالية ــ كان يقوم بترجمة النص العربي كلمة فكلمة الى اللغة القشتالية ، ثم يقوم دومنكوس غندسالينوس ــ الذي لايعرف سوى القشتالية واللاتينية ــ بترجمة الكلمات القشتالية الى اللغة اللاتينية كلمة فكلمة .

وقد نشرت بعض الاقسام من « كتاب الشفاء » تحت عنوان « تعليقات ارسطو » واعتبرت من لدن المتعلمين في العصر بانه موثوق بصحتها هنالك فيلسوف شهير آخر هو الغزالي الذي ولد سنة ١٠٥٩ في خراسان ؛ والذي عمل مدرسا في بغداد ؛ وعاش في الاخير متصوفا في سوريا . ولقد ترجمت مؤلفاته في المنطق والطبيعيات والغيبيات الى اللغة اللاتينية على يد دومنكوس غندسالينوس ايضا ، وهو الذي ترجم كتابه الارليابي الشهير « تهافت الفلاسفة » Destructio Philosophorum ذلك الكتاب الذي يكشف ؛ بصفة انتقادية جدا ؛ عن التناقضات الداخلية بين مختلف الانظمة الفلسفية .

على ان الفلاسفة المسلمين في اسبانيا كانوا ؛ في العصر الذي اعقب وفاة الغزالي مايزالون يمارسون تأثيرا اوسع على الفلسفة المسيحية خلال العصور الوسطى . ولقد ظفر هؤلاء الفلاسفة المسلمون في اسبانيا احيانا بشهرة اوسع في نطاق الفلسفة المسيحية ، وذلك عن طريق الترجمة اللاتينية لمؤلفاتهم ، تمدت الشهرة التي نالوها عن طريق مؤلفاتهم العربية الاصلية ؛ وتعاليمهم في محيطهم الاسلامي .

كان ابن باجه (عرف لدى الغرب باسم افمباجه Avempace) الذي ولد في سرقوسه في اواخر القرن الحادي عشر طبيبا ورياضيا وفلكيا وفيلسوفا شهيرا . ولقد عاش اخيرا في غرناطة ومن ثم في افريقيا ؛ وتوفي سنة ١١٣٨ مسموما على يد زميلة[٢٢] قبل ان يكمل مؤلفه الرئيس[٢٣] .

---

(٢٢) قتل ابن باجه مسموما على يد تاجر وفيلسوف اندلسي شهير هو ابن زهر الطبيب اذ قيل انه هو الذي دس السم لابن باجه في طعامه فمات من ساعته وذلك في سنة ٥٣٢هـ ١١٣٨م .
ولقد اعددنا دراسة مترجمة مسهبة عن ابن باجه نشرتها مجلة « المورد » في الجزء الثالث من مجلد سنة ١٩٧٨ تحت عنوان « ابن باجه : كبير فلاسفة الاندلس » .

(٢٣) يقصد بذلك كتاب « تدبير المتوحد » الذي اورد فيه آراءه

وضع ابن باجة مؤلفات كثيرة عن القضايا النفسية والمنطقية ؛ ونشر الكثير من التعليقات على كتابات ارسطو في مجال العلوم الطبيعية كالطبيعيات والمعادن وغيرها .

وهناك عضو شهير آخر من اعضاء المدرسة الفلسفية الاسلامية في اسبانيا هو ابو بكر المعروف لدى الغرب باسم Abubacer ؛ والذي ولد سنة ١١٠٠ في الاندلس ؛ وتوفي في مراكش سنة ١١٨٥ (٢٤) وكان من البرزين في الطب والرياضيات والفلسفة كما كان شاعرا مجيدا ايضا وقد ترجم المترجمون المسيحيون في طليطلة كل مؤلفاته

كانت اهم مدرسة اسبانية للفلسفة الاسلامية هي مدرسة ابن رشد الذي عرف لدى الغرب باسم « افروس Averroes » ؛ والذي ولد في قرطبة سنة ١١٠٦ .

كان ابن رشد صديقا لابي بكر(٢٤) الذي قدمه الى الخليفة « ابي يوسف » سنة ١١٥٣ واوصى به كافضل مفسر لكتابات ارسطو(٢٥) .

ولقد وقف ابن رشد الى جانب الامير ؛ الذي كان هو الاخر ذا ثقافة جيدة في المعرفة الفلسفية ؛ فاسبغ طبيبه الخاص . غير ان انكبابه على دراسة المؤلفات الاصلية للفلاسفة اليونانيين ؛ ولاسيما ارسطو ؛ كانت مثار هجمات عنيفة تعدد من جانب السلفيين المسلمين . فلقد اتهم بالدعاية للفلسفة وللعلوم الوثنية المناقضة للدين الاسلامي والتي ظهرت في العصور التي سبقت العصور الوسطى .

ولذلك نفاه الخليفة المنصور(٢٦) الى « البانا » على مقربة من قرطبة ، ومن ثم نفى الى مراكش . واصدر ذات الخليفة مراسيم شديدة ضد دراسة الفلسفة اليونانية . ويقول المنصور في احدى هذه المراسيم « ان الله قد اعد نار جهنم لكل اولئك الذين تعلموا بان الايمان لايتم الوصول اليه الا عن طريق العقل وحده حسب » . ونتيجة لهذا المرسوم تم احراق كل المدونات الفلسفية والميتافزيقية التي وضعها ابن رشد .

توفي ابن رشد سنة ١١٩٨ وبعد وفاته مباشرة انتهت الخلافة الاسلامية في اسبانيا ؛ وانتهت معها الثقافة الاسلامية التي ازدهرت في ظل الحكم العربي .

لكمن القوة الاساسية لابن رشد ليس في اكتشافه مبادىء غيبية جديدة حسب ؛ بل وفي تفسيره النقدي لمذهب ارسطو ايضا .

ذلك ان كل انظمة المدرسة اليونانية في الشرق ؛ ابتداء من الكندي حتى « ابن طفيل » كانت تبدو في نظر ابن رشد انحطاطا وانحرافا عن المذاهب الاصلية التي وضعها ارسطو . فقد كان ارسطو في نظر ابن رشد ؛ اكمل عبقري عرفته البشرية ؛ وان انحطاط الفلسفة لايمكن تقويته الا عن طريق نهضة في المذهب القويم لذلك العبقري ولذلك فنحن ندرك ايضا بان ابن رشد كان ينظر بازدراء الى علم الكلام باعتباره يمثل العقيدة السلفية للاسلام - والذي وضع نظامه العقائدي من دون ايه اشارة الى ارسطو .

تتألف كتابات ابن رشد من جملة تعليقات على اراء ارسطو . ولابد لنا ان نميز التعليقات الكبرى اولا ؛ والتعليقات الوسطى ثانيا ؛ والتعليقات الصغرى او التلخيصات والتحليلات ثالثا .

ويظهر ان ابن رشد قد كتب التعليقات الوسطى قبل وضع التعليقات الكبرى ؛ لانه كان في كثير من هذه التعليقات الوسطى يعد بان يكتب فيما بعد بشكل مفصل اكثر عن ذات المسائل .

يبدأ ابن رشد في التعليقات الوسطى بنصوص ارسطو ؛ وهو يعطي على الدوام خلاصة لافضل من فصول كتب ارسطو مع تفسيرات وايضاحات وملاحظات مفصلة عنه . ولذلك فان من العسير مراحة علينا ان نميز ابا من الكلمات تعود الى ارسطو وايها تخص ابن رشد نفسه .

اما في تعليقاته الكبرى فانه يسرش ، على الدوام ، نصلا باكمله من النص الاصلي لارسطو

---

السياسية في الحكم بصلة تفصيلية . وتوجد مخطوطات من هذا الكتاب في القاهرة وبرلين وفي مكتبة بودليان باكسفورد والاخيرة اكثر اهمية من غيرها .

(٢٤) ابو بكر يقصد به ابو بكر بن ابراهيم صهر الامير المرابطي وكان حاكما لسرقسطة مدة من الزمن وقد اتخذ ابن باجه جليسا له ووزيرا في ولايته .

(٢٥) ابو يوسف : الخطأ الكاتب في ذلك فالمقصود هو ابو يعقوب يوسف الموحدي ملك الموحدين في مراكش وقد تسمى الموحدون بالخلفاء تقليدا للامويين في المشرق والمغرب . وكان يوسف هذا من المطلعين على امور الفلسفة والمشتغلين بها وكان صديقا لابن رشد وقد عينه طبيبا خاصا له سنة ٥٧٨هـ .

(٢٦) المنصور الموحدي تولى الحكم بعد يوسف وقد انقلب على ابن رشد بتاثير الجهلاء من المتعصبين بعلوم الدين ولذلك نفاه وامر باحراق كتبه الفلسفية والطبية ، عدا الطبية منها علما بان المنصور نفسه كان من انصار الفلسفة .

ثم يضع تفسيرا او شرحا مفصلا لكل فقـــرة من ذلك النص .

اما الشروح ؛ وهي الاخرى خلاصات ؛ والتي يدعوها ابن رشد نفسه بالخلاصات الصغرى فانه لايعطي فيها سوى الخلاصة وحدها مع محتـــوى قصير من مختلف كتابات ارسطو ؛ ويضيف اليها في بعض الاحيان اراءه حول القضايا المتعلقة بها .

لقـد كان ابن رشـــد يبتغي ان ييسر دراســة الفلسفة الرواقية لكل اولئك الذين لم يستطيعوا ان يدرسوا نصوص ارسطو . وكان يكن لارســطو احتراما اكثر مما كان يفعله ابن سينا . فهو يعتبر ارسطو نموذجا لمؤسس دين المعرفة الكونية ؛ على غرار الرجل الذي يسمح له الله بان يبلغ اعلى مدارج الكمال والحكمة بين افراد الجنس البشري

ذلك ان ارسطو يبدو في كتابات ابن رشد بانه هو مؤســس المعرفة الكونية ؛ وكل المعرفــة العلمية ؛ وهو منجزها ومتممها . ولذلك ندرك ان ابن رشد كان الفيلسوف الاسلامي الذي احدث اعظم تاثير في الفلسفة اللاتينية خلال العصـــور الوسطى ؛ وهو الذي يبرز كمؤسس للمدرســة الفلسفية التي احتضنت الدارسين من اللاتيـــن ؛ والتي كان اعضاؤها يلقبون بالرشديين ؛ وكـان مركزها كلية باريس الفلسفة في اواسط القرن الثالث عشر .

لقد كانت المذاهب المميزة لهؤلاء اللاتيـــن الرشديين هي ذات المصدر الارسطاليسي والرشدي وعلى الاخص مذهب ازلية العالم والحركة ؛ ومذهب وحدة العقل في كل الناس ؛ ومذهب الايمان المزدوج وفي النتيجة مذهب احتمال حـدوث تناقض بين عقيدة الفلســفة وعقيدة الدين .

لانستطيع ان نعرض هنا صورة كاملة للحركة الرشدية بين اللاتين . ولكن يكفي ان نشير الى ان الشخصيات الرئيســة التي تمثل الارسطاليـــية الخالصة للاعمال الرشدي في القرن الثالث عشر ؛ كانت تضم رؤوسا بارزة مـــن امثـــال « سيغر » من « برابانت » ؛ « وبوتيوس » من « دانيا »(٢٧)

(٢٧) كان سيغر البرابنتي Siger von Barabant وهو الرشدين نبغ في سنة ١٢٦٦ وكان عضوا في كلية الاداب بباريس وقد انتقد المعارضين للرشدية امثال البرت والوما ولقد هاجمه رجال التنليش بايعاز من الطائفة الفرنسسكانية فاودعوه سجن « اورفيتو » الذي مات فيه في تاريخ يقع بين ســنتي ١٢٨١ ، ١٢٨٤ وكان سيغر هـــذا من بين الشخصيات التي وصفها « دانتي » في الجنة في الملهـاة البشرية .

ويمكن تصوير اهمية هذه المدرسة بحقيقـــة ان معظم المبرزين من رجـال اللاهوت والفلاسـفة اللاتين من اتبـاع الفلسفة النصرانيـة ؛ امثـال « البرتوس ماغنوس » ؛ و « توما الاكويني » ، و « ايجديوس رومانوس » ؛ و « رموندوس لولوس » كان عليهم ان يقاوموا هذه الطائفة من حملة الفلسـفة الارسطاليسية الخالصة ؛ وذلك لان افضل المدافعين عن اللاهوتية الرسمية في ذلك العهد لم يستطيعوا تفنيدها ، وكانت السلطات الكنسية مجبرة على ان تستنكر بصفة رسمية في اول الامر ؛ ثلاثة عشـر رايا ؛ ومن ثم مائتين وتسعة عشر رايا من اراء الرشديين اللاتين في الفترة ما بين ســـنتي ١٢٧٠ و ١٢٧٢ .

وعلى الرغم من هذا الاستنكار الرسمي فان الفضائل الايجابية لكلية باريس الفنية عند ، تتمثل في جهودها الرامية الى اعطاء تفسير منحص لكتابات ارسطو المنطقية . ذلك ان اعضاء هذه المدرسة لم يدخلوا الكتابات المنطقية لارسطو (Logika Nova) التي اكتشـــفت مؤخـــرا ، والتي لم تنقلها عن التعاليم الفلسفية الاسلاميـة ؛ لم يدخلوهـا في التدريب الفلسفي للجامعات المسيحية حسب ؛ بل انهم ادخلوا ايضا نوعا جديدا من الطريقة الفلسـفية النصرانية ؛ وقدموا عرضا مسلسلا لكل محتوى كتابات ارسطو المنطقية ؛ وبذلك فتحوا عصـــرا جديدا حقا للتفكير المنطقي والمنهجـي في العلـوم الاوربية .

لتكمل الآن بوصف موجز ؛ المراحل الوحيدة لترجمة اثار ارسطو نفسه . في مقدورنا ان نلاحظ اتجاها تقدميا مهما جدا في اكتشـاف كتابات ارسطو خلال العصور الوسطى في اوربا .

ففي اول الامر لم يكن قد عرف ؛ في اوائل العصور الوسطى لارسطو سوى كتابين في المنطق ، اولهما « كتاب المقولات Categoriae وثانيهما كتاب التفسير ؛ في ترجمة لاتينية وضعها « بوثيوس » وهو فيلسوف لاتيني من اتباع الفلسـفة الافلاطونية الحديثة عاش في القرن الرابع للميلاد(٢٨) فقد كان هذان الاثران كل ماعرفته اوربا من اثار ارسطو خلال ثمانمائة عام . ففي النصف الاول من القرن الثاني عشـر وحده ، تـم اكتشـاف كتابات منطقية اخرى من كتاب « الاورغانون Organon لارسطو ؛ بالاضـافة الى مجموعة من كتاباته في المنطق وقد تمت ترجمتها .

(٢٨) الصواب هو القرن الثالث للميلاد .

وابتداء من اواسط القرن الثاني عشر وما بعد عرف الباحثون الاوربيون ، عن طريق ترجمات لمخطوطات عربية وجدت في اسبانيا ، كتابات اخرى لارسطو وهكذا تسلم الدارسون المسيحيون ، بالاضافة الى الترجمات العربية لمؤلفات ارسطو ، ترجمات لتعليقات والكتابات التي وضعت باللغة العربية[٢٩] عن تعاليم ارسطو ايضا .

لم يكن معروفا لدى الدارسين المسيحيين في اوربا ، من القرن الرابع حتى القرن الثاني عشر ، سوى جزء ضئيل جدا من تعاليم ارسطو ، وعلى الاخص قلة من كتابات ارسطو المنطقية ، وهي نفس الكتابات التي سبق استعمالها من لدن المدارس الوثنية المختصة بعلم البلاغة في مدينة روما خلال القرن الرابع للميلاد . فقد ذكر ان الاساتذة الشهيرين في علم البلاغة بمدينة روما كانوا قد وضعوا ترجماتهم وشروحهم تلك لكي يستعملها التلامذة في ذلك العهد . اما مؤلفات ارسطو الاخرى كلها ، عن العلوم الطبيعية ، والاخلاق ، والسياسة والاقتصاد ، فقد كانت مجهولة تماما .

كان ظهور الفلسفة اللاهوتية المسيحية خلال القرن الثاني عشر ، مرتبطا ارتباطا مباشرا باعادة اكتشاف مؤلفات ارسطو هذه ، والتي لم تكن معروفة ابدا حتى ذلك الوقت وسرعان ما ارتبط التقدم الذي حدث في العلوم النفسية ، في الفروع المختلفة من العلوم الطبيعية والسياسية ، والفلسفة الاخلاقية ، ارتباطا مباشرا مع اكتشاف كتب مفردة لارسطو عن العلوم موضوعة البحث .

ولقد كان هذا الامر طبيعيا تماما . ذلك لان طريقة النهج المدرسي في العصور الوسطى ، كانت تقوم على اساس مبدأ النص ، ولان طريقة النهج المدرسي كانت هي طريقة شرح الكتابات القديمة لارسطو والتي كانت تعتبر بمثابة سند سماوي ، من امثال النص « المبشر بالمسيح في الاشياء الطبيعية Precursor Christ in Naturalibus

* * *

جرى اكتشاف مؤلفات ارسطو المنسية في جزيرة سقلية ، وفي بلاط الامبراطور فردريك الثاني في بالرمو[٢٩] حيث اتصلت الحضارة اللاتينية اتصالا مباشرا بالتعاليم الفلسفية والعلمية العربية ، ولكن مثل هذا الاكتشاف كان على نطاق اوسع بكثير في اسبانيا ، حيث تم تنظيم مختلف مدارس المترجمين هناك وعلى مختلف العصور .

لقد سبق لنا ان عرفنا خلا لالقرن الحادي عشر ، بل في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، اولئك العلماء اليهود الذين قاموا بترجمة النصوص الفلسفية اليونانية من الترجمات العربية الى اللغة اللاتينية .

ولست اريد ان اشير هنا الا الى اسماء كل من « قسطنطين الافريقي » و « ادلارد الباثي » ، وهرمانوس الدلماسي ، وروبرت الرتيني ، فقد قام كل هؤلاء الاساتذة بترجمة النصوص العربية في علوم الرياضيات ، والفلك ، والطب ، الى اللغة اللاتينية .

ولقد تعاظمت حركة ترجمة النصوص اليونانية من العربية بشكل اوسع في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ففي حدود سنة ١١٥٠ نجد اساتذة من امثال « يوحنا بن داود » الذي يلقب باسم « حنين الاسباني » ودمنكوس غند سالينوس ، الذي اشرنا اليه قبلا ، قد ترجموا ، بامر من « ريموند » اسقف طليطلة من اللغة العربية الى اللاتينية ، ليس مؤلفات عديدة للفارابي والغزالي ، وابن سينا ، تلك الترجمات التي اشرك فيها هؤلاء الفلاسفة شروحهم وتعليقاتهم على كتابات ارسطو حسب ، بل ترجموا ايضا ولاول مرة نصوصا جديدة لارسطو[٤٠] .

وهكذا لم تصل الى الغرب كتابات ارسطو المنطقية الجديدة حسب ، بل وصلت ايضا كتاباته عن الطبيعيات ، وكتابه عن السماء والارض ، وكتابه الشهير عن علم النفس وكتابه عن الروح[٤١] .

هناك عضو اخير جم النشاط في مجلس المترجمين بطليطلة ، هو جرهارد الكريموني الذي اشير اليه قبلا ، والذي كان يعيش في بلدة « كريمونا » منذ سنة ١١٤٤ ، وهو الذي ترجم عددا كبيرا من المؤلفات العربية .

فقد ترجم جرهارد من العربية الى اللاتينية مثلا كتاب « انالوطيقا » لارسطو مع تعليق تمستيوس عليه ، كما ترجم بعض الكتب عن العلوم الطبيعية ، وكتابات ارسطو عن العلوم ، وكتابه عن

---

(٢٩) فردريك الثاني هو ملك النورمان الاقوام التي غزت جزيرة صقلية وانتزعتها من ايدي العرب وقد ظل هذا الملك وخلفاه يستعينون بالعرب في ادارة شؤون مملكتهم في كل مناحي الحياة العامة تقريبا .

(٤٠) ليس هناك اي سند تاريخي يؤكد ان المترجمين في اسبانيا قد عثروا على كتابات لارسطو لم يترجمها العرب من قبل. فالثابت بصفة تاريخية ان العرب قد ترجموا كل ما وجدوه من مؤلفات ارسطو الى اللغة العربية ، بل ترجموا عدة كتب منحولة له ، وان كل هذه الترجمات قد انتقلت من بغداد وغيرها الى الاندلس .

السماء والارض ؛ وكتابه عن الكون والفساد ، والكتب الثلاثة الاولى عن الميازك «الظواهر الجوية» .

والى مدرسة المترجمين في طليطلة تلك ، ينتمي « دانيل » من « مورلي » ؛ والذي نشر بالتعاون مع روجر هرفورد في انكلترا ؛ المعرفة بالادب العربي ؛ وعلى الاخص المؤلفات العربية في الفلك خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

ولم يكن دانيل هذا ذا خبرة باللغة العربية ولا بالادب العربي . ومع ذلك فهو ينسب الى بعض مؤلفات ارسطو ، التي لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت(٤١) من امثال الكتب التي تتحدث عن العقل والاحساس ؛ والسماء والارض ؛ والسماع الطبيعي وغيرها .

ولقد ظلت اسبانيا ، وعلى الاخص مدينة طليطلة ؛ تحتفظ بأهميتها الاساسية كوسيط لنقل العلم الارسطوطيسي العربي الى الحضارة المسيحية اللاتينية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد .

ففي اسبانيا عكف الباحث الشهير « الفريدوس انكليكوس » على دراسة المخطوطات العربية في علوم اللغة والاداب .

واخيرا نجد في طليطلة واحدا من اشهر المترجمين ، واوسعهم نشاطا هو ميخائيل سكوت المتوفي في حدود سنة ١٢٣٥ . فلقد ترجم سكوت تعليقات ابن رشد على مؤلفات ارسطو عن السماء والارض ، والمؤلفات النفسية التي وضعها ارسطو ؛ وكذلك كتابات ارسطو عن الحيوانات في اعادة موجزة وضعها ابن سينا .

كذلك ترجم سكوت تعليقات ابن رشد على مؤلفات ارسطو في الكون والفساد ؛ ومؤلفاته عن النبازك ؛ ومؤلفاته الصغرى عن العلوم الطبيعية .

وفي طليطلة ظهر مترجم اخر هو هرمانوس الالماني الذي توفي وهو يشغل منصب اسقف « استورغا » في اسبانيا سنة ١٢٧٣ .

فقد ترجم هرمانوس هذا ؛ التعليقات الوسطى لابن رشد على الاخلاقيات التي وضعها نيكوماخوس ووضع هرمانوس ايضا في الفترة مابين ١٢٥٤ و ١٢٥٦م ترجمات لتعليقات ابن رشد على مؤلفات ارسطو في البلاغة والشعر .

وهناك مترجم اسباني اخر عمل على ترجمة نصوص ارسطو العربية هو « بطرس غاليغو » اسقف قرطاجنة نتحدث مدينون الى بطرس هذا بخلاصة لمؤلفات ارسطو في علم الحيوان والاقتصاد .

في ذات الوقت كانت هنالك مدرسة اخرى للمترجمين كانت تمارس اعمالها في صقلية ، تلك الجزيرة التي سبق لها ان حافظت خلال قرون ، على التراث العلمي والفلسفي البيزنطي . ولقد قامت هذه المدرسة بنقل التراث العلمي للثقافة الاسلامية، والكثير من الكتابات التي وضعها ارسطو عن النصوص اليونانية الاصلية(٤٢) .

لا استطيع ان اصف بالتفصيل هذا المركز الاخير من مراكز الترجمة ؛ لكنني اكتفي بالقول انه منذ بداية القرن الثالث عشر كانت هناك طائفتان مختلفتان من المترجمين لاثار ارسطو تعملان جنبا الى جنب فقد كانت اولى الطائفتين تعتمد في الاصل على المصادر العربية ؛ بينما كانت الاخرى تنقل مباشرة عن اللغة اليونانية .

فمن بين المؤلفات الغيبية ( الميتافزيقيسة ) توجد ترجمة يونانية قديمة تدعى « الميتافزيقيا القديمة Metaphysica Vetus » تعزى الى يونيوس ؛ واخرى تدعى « الميتافزيقيا الحديثة M. Nova وهي ترجمة عربية لاتينية من القرن الثاني عشر ؛ وضعها جرهارد الكريموني ؛ او ميخائيل سكوت .

وهناك ترجمة اخرى يونانية لاتينية جديدة Translatio Nova وضعها ؛ على اكثر احتمال؛ « وليلم » من « موربيك » وهو المترجم الشهير الذي اعتمد عليه توما الاكويني . وكان وليلم قد سحح معظم الترجمات لكتابات ارسطو الاصلية التي اكتشفت حديثا ؛ لحساب « سير اكويناس » وهو لقب توما الاكويني .

ويمكن ملاحظة ذات الظاهرة بالنسبة الى مؤلفات ارسطو عن الاخلاقيات . فهناك الاخلاقيات القديمة Ethica Vetus ؛ والاخلاقيات الحديثة Ethica Nova فالترجمة الاولى تعزى الى بوليوس ايضا ؛ والاخرى تعتبر ترجمة عن النص العربي .

---

(٤١) وضع ابن النديم في كتابه الفهرست قائمة منفصلة بمؤلفات ارسطو والشروح والتعليقات التي وضعت عنها بالاضافة الى الترجمات التي اجريت لتلك المؤلفات الشروح والتعليقات ومعظمها عربية والقليل منها سريانية ولقد كانت هذه المؤلفات غير معروفة في اوربا كلها ، بينما كانت شائعة منذ وقت طويل في انحاء العالم الاسلامي مشرقه ومغربه .

(٤٢) يجب ان لا يفهم القارئ من هذه العبارة وجود نصوص يونانية لارسطو لم يترجمها العرب الى لغتهم . فالمقصود بالنصوص اليونانية الاصلية هنا ، هي ذات النصوص التي وصلت الى العرب ولمت ترجمتها الى العربية اما بصفة مباشرة ، او من طرق نقلها الى اللغة السريانية كخطوة اولى .

ولقد قام « غروستستوس » واسمه روبرت ؛ بوضع ترجمة لاخلاقيات نيقوماخوس عن المصادر اليونانية .

ومن مؤلفات ارسطو في العلوم الطبيعية . توجد ترجمتان عربية لاتينية ؛ وضع احداهما جرهارد الكريموني ؛ ووضع الاخرى ميخائيل سكوت على اكثر احتمال كذلك ترجم احد هذين العالمين كتاب الارض والسماء لاول مرة عن اللغة العربية . وقد ظهرت فيما بعد ترجمة يونانية لاتينية لهذا الكتاب على يد ولهلم الموربيكي على اكثر تقدير .

وحدث ذات الشيء بالنسبة الى كتاب ارسطو عن الكون والفساد . فقد وجدت له ترجمة عربية لاتينية وضعها جرهارد الكريموني . ثم ظهرت له ترجمة اخرى يونانية لاتينية .

اما مؤلفات ارسطو في العلوم الطبيعية . فقد تهتم بترجمتها مترجم شهير هو « الفريد سرجيل » الذي اضاف اليها ايضا مؤلفات ارسطو عن الظواهر الطبيعية مع تعليقات ابن سينا عليها .

كذلك وضع الفريد هذا ترجمة عربية لاتينية لكتاب يعزى الى ارسطو يتناول الخضار والنبات .

لقد تم نقل مؤلفات ارسطو عن علم الحيوان الى الدارسين اللاتينين في العصور الوسطى على يد ميخائيل سكوت الذي جمع كل هذه المؤلفات في مجموعة تضم تسعة عشر كتابا .

لقد ظل البرتس ماغنوس الاستاذ الالماني الشهير في العلوم الطبيعية ؛ في اوائل عصر النهج المدرسي في القرون الوسطى ؛ والذي كان يدرس في جامعة كولون . ظل « البرتس » هذا . حتى اواخر القرن الثالث عشر يستخدم كتابات ارسطو عن الحيوانات . بالاعتماد على ترجمة عربية لاتينية لتلك الكتابات .

كذلك عثر على مؤلفات ارسطو السيكولوجية في ترجمة عربية لاتينية وضعها ميخائيل سكوت ؛ بالاضافة الى ترجمة يونانية لاتينية لها انجزها مؤخرا ولهلم الموربيكي .

فهذه الترجمات اعتبرها اساتذة الحضارة اللاتينية نوعا من كشف جديد ؛ فتح امامهم مجالا غير متوقع الى ميدان هائل من ميادين المعرفة الجديدة والمعلومات الحديثة .

لا يمكن ان تقارن عملية اكتشاف الفلسفة اليونانية هذه ؛ الا باكتشاف العالم الجديد ، بعد قرنين متأخرين عن ذلك .

لقد كان عالما روحيا جديدا انفتح بفعل هذه الترجمات التي وضعت عن التراث العلمي الذي للعصور اليونانية التي سبقت العصور الوسطى ؛ وادى انفتاحه الى توسع وغنى غير متوقعين في عالم المعرفة ؛ واكتشاف عالم اوسع وطبيعة اغنى .

غير ان هذا لم يكن هو التأثير الوحيد الذي احدثه هذا الاكتشاف الجديد للتراث العلمي الفلسفي اليوناني العظيم فقد اصبح مستطاعا . بفضل هذه النصوص الجديدة نقد التراث الفلسفي برمته .

ولذلك بدأت اول الامر ؛ في اواسط القرن الثالث عشر ؛ فترة نقد فلسفي وتاريخي . ذلك ان المفكرين المسيحيين في ذلك الوقت شرعوا يكتشفون الفرق الواسع بين المعنى الصحيح والاصلي لمؤلفات ارسطو . وبين الشروح الافلاطونية الحديثة التي جاءت بعده .

وكان توما الاكويني اول من شرع يرى بجلاء الفرق القائم بين الفلسفة الارسطاليسية الاصلية وشروحها الميتافزيقية والرمزية المتأخرة ، في المؤلفات الفلسفية العربية منها والافلاطونية الحديثة .

كذلك اكتشف توما الاكويني في اول الامر ان مثل هذه الكتب ومنها « كتاب الاسباب » مثلا : و « لاهوت ارسطو » لم تكن من المؤلفات الاصلية لذلك الفيلسوف ؛ وانما هي مقتطفات من الكتابات الافلاطونية الحديثة المتأخرة .

* * *

لقد كان اكتشاف كتابات ارسطو الاصلية وتأثيره البالغ في المعرفة العلمية واللاهوتية في ذلك الوقت . مدعاة لحدوث ذات المردود في النطاق المسيحي الذي سبقت الاشارة اليه ؛ وهو بمثابة مردود نموذجي في التاريخ المبكر للحضارة الاسلامية .

لقد كان رجال الدين المسيحي المحافظون في ذلك الوقت يعتبرون اكتشاف كتابات ارسطو بمثابة غزو تقوم به الوثنية داخل الكنيسة المسيحية سيما وان نقلة هذا الاكتشاف ؛ كانوا في الواقع ؛ هم الفلاسفة المسلمون ؛ والعلماء المنتمون الى الثقافة الاسلامية مما اعتبره رجال الدين المسيحي دلالة صحيحة على ان الخصم القديم للكنيسة ؛ وعدو المسيح نفسه ؛ قد عاد فظهر الان في الكنيسة بساندة في ذلك حلفاؤه المتمدنون[٤٢] .

(٤٢) يقصد بهؤلاء الحلفاء ، الفلاسفة المسلمون الذين عكفوا على فلسفة ارسطو واولوها نقدا ودراسة ، وتأثروا بها الى حد كبير في فلسفتهم الخاصة التي ابتدعوها وعلى رأس هؤلاء الكندي ، والفارابي وابن رشد الذين كان لهم الفضل الاول في الحفاظ على تراث ارسطو ، وتلخيصه ووضع الشروح المستفيضة له واظهار ما فيه من تناقض واخطاء .

ذلك ان الكنيسة ترى في الارسطاليين العرب بانهم مازالوا اكثر وثنية ؛ وانهم مافتئوا اعظم خطر عليها من ارسطو نفسه !

ولذلك نجد في القرن الثالث عشر ردود فعل عنيفة جدا من جانب السلطات الكنيسية ضد حركة التنزو التي قامت بها الفلسفة الاسلامية الارسطالية ففي ذلك الوقت الذي ظهر فيه النهج المدرسي المسيحي في العصور الوسطى . اخذ رجال الدين المسيحي يعقدون المجامع الكثيرة لهم ، ويستنكرون ـ بصفة رسمية وعلى الاخص في فرنسا ـ فلسفة ارسطو كما يستنكرون بشكل خاص اولئك المدافعين عن هذه الفلسفة من المسيحيين المتحضرين ؛ حيث اصدرت الكنائس قرارات التحريم ضدهم .

لااريد ان اشير بالتفصيل الى اللاهوتيين الذين اتهموا بانهم هراطقة ، وتلامذة لارسطو وللعرب الذين نقلوا آثاره . ولكني سأشير هنا الى نقطة واحدة حسب ؛ هي ان البابا غريغور التاسع كان في سنة ١٢٣١ م قد تأثر بمختلف مجامع رؤساء الكنيسة الذين اعلنو بان مؤلفات ارسطو كلها هرطقة . وامروا بتمحيص كل مؤلفات ارسطو الفلسفية . ولاسيما مؤلفاته عن العلوم الطبيعية . وعن فلسفة الطبيعية ؛ وان تحذف منها كل الافكار الوثنية كيما يمكن تدريسها بعد ان يعاد النظر فيها وتتم تنقيتها دون اي خطر يمس الروح المسيحية .

لقد اصدرت جامعة باريس قبل غيرها هذا القرار ثم امتد مفعول ذات القرار سنة ١٢٤٥م الى جامعة « طولوز » وجدد مرة اخرى بصفة خاصة في جامعة باريس ايضا سنة ١٢٦٣م على يد البابا اربان الرابع .

على ان هذا المردود القديم لم يحل دون انتصار ارسطو الذي اعتبرته المدارس الفلسفية واللاهوتية في العصور الوسطى بمثابة مبشر بالمسيح في قضايا الطبيعة ؛ وكان في نظرها موازيا ليوحنا المعمدان الذي بشر بالمسيح في قضايا النعمة .

وكان ذات الاحترام الذي اولاه ابن رشد لارسطو ، قد تلقاه ارسطو ايضا من الجانب المسيحي على يد البرتس ماغنوس الذي اعتبر ارسطو بانه الاساس الفلسفي الصحيح الذي بني عليه الفهم المسيحي للكون والله ، وللطبيعة البشرية .

في نهاية هذا التطور يعود البابا اربان الرابع نفسه فيعلن في سنة ١٢٦٦ بان على كل المرشحين لدراسة الفلسفة في الجامعات المسيحية ان يبرهنوا في امتحاناتهم على معرفتهم بكل مؤلفات ارسطو .



( ٢ )

# دور العرب

## في الثقافة الاسلامية

تأليف

**جون ستوتهوف بادو**

## كلمة المترجم

ماتزال الحضارة العربية الاسلامية من الموضوعات المهمة التي يعكف كبار العلماء الدارسين في الغرب وفي الشرق على حد سواء ؛ وحتى في العصر الحاضر ؛ على الاقامة في دراستها ؛ وتتبع مراحل تطورها .

ولم يكن هذا بالامر العجيب ؛ او المستغرب قط . ذلك لان الحضارة العربية الاسلامية ؛ وباعتراف ائمة رجال العلم والفن والادب في العالم الغربي برمته . كانت من اهم مصادر الحضارة العالمية الزاهرة ؛ وهي المنبع الفياض الذي نهلت منه اوربا علومها وفنونها قبل ان يبدأ عصر النهضة فيها

فلقد ظلت امهات المؤلفات العربية في الطب والرياضيات ؛ والعلوم ؛ والفلسفة ؛ وغيرها تدرس في المعاهد وفي الجامعات الاوربية حتى القرن السابع عشر ؛ وكانت مصادر عظيمة للدارسين في شتى فنون المعرفة .

ومن خيرة الكتب التي صدرت مؤخرا عن الحضارة العربية الاسلامية باللغة الانكليزية ؛ كتاب « عبقرية الحضارة العربية مصدر النهضة الاوربية »

The Genius of Arab Civilization Source of Renaissance

اصدرته اللجنة التي اشرفت على اقامة مهرجان العالم الاسلامي الذي اقيم في لندن سنة ١٩٧٧ ونشرته مؤسسة مطبعة « فيدون » باكسفورد .

اشترك في تأليف هذا الكتاب الرائع حقا ؛ عشرة من كبار العلماء ؛ معظمهم من الاساتذة العرب العاملين في الجامعات الامريكية في الوقت الحاضر . والكتاب مؤلف من مقدمة وتسعة فصول ويقع في حوالي مائتين واربعين صفحة من القطع الكبير جدا ؛ وهو مطبوع طباعة انيقة نادرة على

ورق مستقبل ، ومحلى بالمديد من الخرائط والرسوم والمصورات العربية الملونة .

لقد اكملنا ، والحمد لله ، ترجمة هذا الكتاب واعداده للنشر ، وقد اخترنا منه هذا الفصل الذي يتناول اهمية الدور الذي لعبه العرب في تكوين الثقافة الاسلامية ونشرها في معظم الانحاء المعروفة من العالم في ذلك الوقت .

اما كاتب هذا الفصل فهو العلامة « جون ستوتهوف بادو » رئيس الجامعة الامريكية في القاهرة ، والاستاذ المتمرس في الجامعات الامريكية وصاحب المؤلفات العديدة عن قضايا العرب في الوقت الحاضر .

سليم طه التكريتي

## دور العرب

## في الثقافة الاسلامية

العالم العربي عالم حديث وقديم معا . فالعالم العربي الحديث ، جديد في زمنه ، لانه اكد وجوده قبل خمسين سنة خلت حسب ، من انقاض الامبراطورية العثمانية المندحرة .

وهو جديد في شخصيته وتركيبه السياسيين ، لانه يتالف ، في الدرجة الاولى ، من حكومات عربية ، لم تكن قد وجدت قبل الحرب العالمية الاولى . وهو جديد في حريته التي يوجه مصيرها الخاص بها .

وهو جديد في اهدافه الاجتماعية والاقتصادية ، والثقافية ، وفي مؤسساته ، وحضه السريع للطرق العلمية والتقنية التي تخص الحضارة العالمية .

في هذا الجو الذي تسوده الجدة ، وبكل امكانياته لتحقيق الانجاز المقبل ، قد يبدو ماضي العرب سحيقا . ذلك لان انجازاته كانت قد تحققت قبل قرون مضت ، وفي عالم مغاير جدا للعالم الذي نعرفه اليوم .

فالمثل العربي الشائع دوما يقول لنا « ماضيات مات » غير ان هذا ليس صحيحا قط . فليس في مقدور المرء ان ينكر ماضيه ، او ينكر صفاته الموروثة . فالماضي حي ليس كتاريخ حسب ، بل اكثر من ذلك انه حي في صفة شعب وشخصيته وهويته ، حتى وان كان افراد الشعب لا يدركون ذلك .

والواقع ان ماضي العرب « يهتف عاليا » وان هتافه هذا دوس ينبغي الالمام بها ، وموارد يجب ان تستخدم في العصر الحديث ، فالماضي — بالمعنى الواقعي حقا — هو مصدر النهوض .

## الفتح العربي والثقافة

احدث افتتاح العرب للعالم القديم ، خلال القرنين السابع والثامن الميلادي ، تاثيرين هائلين ومستديمين معا . وكان اكثرهما وقعا ، وبصفة مباشرة ، هو خلق دولة عالمية جديدة في جوف البحر الابيض المتوسط ، والشرق .

اما التاثير الثاني ، وهو اقل سرعة وجلبة ، ولكن ليس اقل اهمية ، فهو تطوير ثقافة عالمية جديدة ، داخل هذه الدولة . وقد ترك وقع هذه الفتوح والثقافة معا ، تاثيرا عميقا في شكل العصور الحديثة .

قامت الدولة العربية العالمية كنظام امبراطوري ، بسرعة يندر ان حدثت مثلها في التاريخ . ذلك ان العرب استطاعوا ، خلال قرن واحد من ظهورهم على المسرح العالمي ، ان يسيطروا على الاقطار من جبال « البيرنيز » على حدود فرنسا ، الى هضبة « البامير » في قلب اسيا . فلقد ضمت كل من اسبانيا ، وشمال افريقيا ، ومصر ، والاراضي البيزنطية ، الواقعة جنوبي جبال طوروس ، والامبراطورية الفارسية في الشرق ، سوية في مملكة امبراطورية راحت تنافس امبراطورية روما ابان ذروتها .

لم تبق هذه الامبراطورية الحديثة امبراطورية بصفة دائمة . ذلك لان امتدادها عبر ثلاثة الاف ميل من الشرق الى الغرب ، واحتضانها فوارق واسعة من الاديان والشعوب ، قد برهن على استحالة حكمها من مركز واحد للسلطة ، وعلى يد سلالة حاكمة واحدة .

لقد استطاع العرب ان يمسكوا ، ولمدة تزيد قليلا على قرن من الزمان ، بزمام الاقطار التي خضعت سوية لهم وبعد ذلك الوقت بدات الاقاليم تنفصل .

وفي الوقت الذي اكتسح فيه المغول ، العالم الاسلامي في القرن الثالث عشر الميلادي ، لم يعد للامبراطورية العربية الاصلية من وجود قط . فقد حلت محلها مجموعة مبعثرة من حكومات صغيرة ، ودول اقليمية ، واسر حاكمة لا يحكم العرب سوى نسبة منها .

والواقع ان الامبراطورية العربية التي اوجدتها الفتوحات العربية الاولى ، قد تحولت الى « العالم الاسلامي » الذي ظهر في القرون الوسطى . فقد كان عالما وليس امبراطورية : اي انه كان مملكة سياسية تضم دولا منفصلة ، ومتناحرة فيما بينها غالبا . ومع ذلك كانت هذه الدول تدرك الهوية المشتركة التي كانت تميزها عن المناطق الاخرى .

في مثل هذا العالم الاسلامي نشأت ثقافة عالمية جديدة . كانت هي النتيجة الثانية العظمى للفتوحات العربية . وقد ابتدعت هذه الثقافة ، او انها كانت « مبتدعة » ـ بفتح العين ـ بالمعنى الدقيق الصحيح لها . ذلك لان ما حدث لم يكن فرض ثقافة اجنبية عن طريق الغزو . ولا هو يشبه ذات العملية التي قامت بها المدنية الغربية اثناء عصر الاستعمار الاوربي .

فالحضارة المميزة ، الفنية بالالوان ؛ التي كانت تميز العالم الاسلامي ؛ انما تكونت في مرحلها . لقد وجدت ضمن الدولة الجديدة التي اعطت صفتها وهويتها للنظام الجديد الذي نتج عن فتوح الاسلام . ذلك الدين الذي كان ينتشر بين شعوب غريبة ، وكانت اجزاؤه الكبرى التي تألف منها موجودة داخل الحياة والتقاليد المتغيرة للشعوب المغلوبة ، ونعني بها الادب الكلاسيكي ، والفكر الهيليني ؛ والمؤسسات البيزنطية ؛ والقانون الروماني ، والمعرفة السريانية ؛ والفن الفارسي .

لقد تمت الملاءمة بين هذه المصادر بصفة مباشرة اول الامر ، وبين اعادة تشكيلها بصفة بسيطة . ومع ذلك وقبل ان يتم الانتفاع بها بشكل اكثر اختيارا ، ساهمت مع الاتجاهات التي استعملت كمصدر ، وتبلورت معا ، في خلق حركة المعرفة الاسلامية المبدعة . على ان نتيجة ذلك لم تكن مخلصا لجميع ذرات وقطع الثقافة مبعثرة ؛ وانما كان خلقا جديدا له مظاهره الخاص المميز له ؛ والمعرب بالروحية الجديدة ؛ والمعبر عن النظام الاجتماعي الجديد .

ولقد بلغ تطور هذه الثقافة الاسلامية المميزة ذروته التامة ؛ في وقت بدات فيه الرعاية العربية للامبراطورية بالوهن . ففي البداية انهمك العرب بصفة رئيسة في مهام توطيد حكمهم ، وصيانة مركزهم . فقد كانت الاهتمامات الكبرى لديهم تتمثل في انشاء دولة جديدة ؛ والحفاظ على النظام العام ؛ وتعزيز التنظيم العسكري ؛ وجمع الضرائب .

لقد اودعت الاعمال اليومية للدولة وادارتها الى ايدي الطبقة البيروقراطية العامة ؛ وانجبت القلة العليا من العرب الى العيش بمعزل عن المواطنين في المعسكرات الحربية اول الامر ، ومن ثم في المدن المحصنة .

وعندما استقر الفتح العربي في نظام مقبول ومتواصل ؛ وحين اتسع احتكاره للسلطة، الطريق امام حكم اوسع ، عند ذاك حسب بدات الثقافة الحديثة تتطور بسرعة .

وبقيام الاسرة العباسية الحاكمة في سنة ٧٥٠م اخذ المسلمون المهتدون ، واخذت الشعوب الموالية التي تعيش في اطراف المجتمع الجديد ، تتجه متحركة نحو مركز ذلك المجتمع ، جالبة معها تراث ثقافتها وحضارتها .

في مثل هذا الوسط ظهرت الانجازات المميزة للثقافة الاسلامية . فقد بلغ الادب العربي ذروته ، وتم وضع النصوص الكبرى للقانون ، واكتسبت الفلسفة ، والعلوم ، والطب من القدماء ، واعطيت ابعادا جديدة ومحتوى جديدا . وهكذا اصبحت الحضارة الاسلامية الفنية ، المتقنة ، والمتنوعة ، علامة للمجتمعات القائمة في العالم الاسلامي ؛ واحتلت مكانتها بين المنجزات الثقافية العظمى في التاريخ البشري .

## العرب والثقافة الاسلامية

في هذه « السجادة » الملونة للثقافة الاسلامية، كثير من « الخيوط » ذات « نسج » عربي . ففي كل ميدان ، سواء في الادب ، او الفقه ، او الفلسفة ، والمعرفة ، والجغرافيا ، وفن العمارة ؛ توجد اسماء عربية شهيرة ، وانجازات عربية مشهورة غير ان مشاركة العرب قد تجاوزت كثيرا ؛ حدود الادوار التي قام بها العلماء على انفراد ؛ كما تجاوزت اهمية الانجازات الفردية .

تكون مقتضيات التاريخ مبهمة ، شانها في ذلك شان مقتضيات الحياة الشخصية ؛ ومع ذلك تبدو من سجل التاريخ ؛ وبكل جلاء ؛ حقيقة قائمة ؛ هي ان الفتح العربي كان عاملا حاسما في تقرير التطور الثقافي الذي اعقب ذلك الفتح .

وليس علينا الا ان نتذكر الغزوات المغولية ؛

وهي مماثلة في ظاهرها للفتوحات العربية ؛ وكيف انتجت تلك الغزوات نتائج مغايرة[1] .

لقد تم ايجاد امبراطورية مغولية زالت بسرعة . ولكن لم تبرز من هذه الامبراطورية اية مدنية جديدة او ذات اهمية ، وحين ارتدت القطعان المغولية الغازية في النهاية الى مواطنها في صحراء «غوبي»[2] لم تخلف وراءها اي شيء ؛ سوى الخراب والدمار .

ولم يكن العرب قد فعلوا مثل هذا . ذلك انهم جلبوا معهم اثناء افتتاحهم الاقطار ، قوى بناءة خاصة بهم . غيرت المرحلة ، ولونت اطار الحضارة التي ظهرت في النهاية .

## واقع الامبراطورية العربية

كانت اولى هذه القوى البناءة هي واقع الامبراطورية العربية ذاتها . لقد كان متوقعا ان يكون الفاتحون العرب محض غزاة صحراويين حسب النهج التقليدي للغزوات القبلية . يقنعون بمجرد النهب ، ومن ثم ينتهي امرهم .

غير ان هذا لم يكن هو الواقع . فلقد فسّر العرب فتوحاتهم تلك بقولهم انهم كانوا يجاهدون في سبيل الله . وكانوا يقصدون بهذا القول ، ان نظاما اجتماعيا جديدا ينبغي ان يقوم بين الناس ، وان فتوحاتهم يجب ان تكون اداة لخلق ذلك النظام الاجتماعي الجديد .

فقد صورت الامبراطورية التي نتجت من الفتوح في شكل مملكة دائمة ، وخالدة خلودا ذاتيا مما . وانها ليست مجموعة من اقطار خاضعة يراد التمسك بها سوية لا لغرض سوى ان تزيد من غنى فاتحيها الى ابعد ما يستطاع .

خلق واقع الامبراطورية العربية ، الحاجة والمبادرة بارساء نظام جديد ، اجتماعي وثقافي معا ، وذلك للتعبير عن هوية المملكة الجديدة . لقد اصبح اولئك الذين كانوا من الاسبان ، واليونانيين ، والفرس ، والفينيقيين ، والذين كان لكل منهم تاريخه وتقليده المنفصلين ؛ لقد اصبح هؤلاء الان مواطنين لحكم واحد ، له صفة حديثة ، وان لم تكن هذه الصفة قد حددت بعد .

وكان من المحتم ان يمهد خلق مثل هذه الدولة العالمية الجديدة ، الطريق امام ظهور حضارة عالمية . تنمي داخل هذه الامبراطورية الجديدة ، تم اختلاط الثقافات والمجتمعات المتباينة للعالم القديم ، من جذورها الاصلية . وتم سهرها في تفاعل حديث ومثمر .

وسرعان ما استجاب الفاتحون العرب انفسهم الى الاتصال بالمدنيات التي افتتحوها .

وقبل ان تنتهي اول سلالة عربية حاكمة ، وهي التي تولتها الاسرة الاموية . كانت المؤلفات الكلاسيكية قد ترجمت الى اللغة العربية[3] وشيدت المباني الكثيرة التي اوحت بها التصاميم الكلاسيكية ، واخذت المراسات العربية في ميدان النحو والادب تزدهر متأثرة بالطرق الاغريقية[4] .

وفي الوقت الذي فقد فيه العرب سيطرتهم على الحكم ، اخذت المواد غير العربية تظهر في حياة المجتمع الاسلامي ، وفي تفكيره . وفي الوقت ذاته اخذت الشعوب الخاضعة المختلفة تشارك وتهضم احدها ثقافات الشعب الاخر .

---

(1) هذا خطأ فاحش من الكاتب . فلا يوجد هناك اي مجال للمقارنة بين الفتوحات العربية والغزوات المغولية وغيرها . ذلك أن العرب المسلمين عندما كانوا يصلون الى ضواحي مدينة من المدن يطلبون الى اهلها ان يعلنوا اسلامهم ويسلموا المدينة صلحا . وحتى اذا رفض اولئك اعتناق الدين الاسلامي يطلب اليهم تسليم المدينة سلما ودفع الضريبة المفروضة ، ولم يعرف عن الفاتحين المسلمين انهم استباحوا المدن ودمروها وفتكوا باهلها ونهبوا خيراتها كما كان يفعل ذلك المغول وغيرهم .

ولقد صدق « غوستاف لوبون » حين قال « ما عرف التاريخ فاتحا ارحم من العرب » .

(2) صحراء « غوبي » تقع في وسط جمهورية منغوليا الشعبية وتمتد من الشرق الى الغرب . وكانت المنطلق للجيوش المغولية الغازية التي انطلقت في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي ابتداء بجنكيزخان وانتهاء بتيمورلنك .

(3) بدأت حركة الترجمة من اللغات الاخرى الى اللغة العربية في عصر عبدالملك بن مروان الاموي . وكان الامير خالد بن يزيد بن معاوية من اعظم رعاة هذه الحركة في العهد الاموي ( انظر مقالنا « التعريب وكبار المعربين في الاسلام » مجلة « سومر » العدد الثاني والثلاثون سنة ١٩٧٦ ) .

(4) لم يتأثر العرب حتى في ذروة حركة النقل التي ازدهرت في عهدي الرشيد والمأمون ، بالاداب الاغريقية قط . ذلك لان العرب اكتفوا بما كان لديهم من روائع الشعر العربي والاداب العربية ، ولم يحاولوا ترجمة اي شيء من الاداب الاغريقية ، اذ كان همهم منصرفا الى نقل العلوم التي لم يكن لهم اي باع فيها من امثال الطب والرياضيات والفلسفة والمنطق وغيرها .

لقد حطمت الحواجز التي تعوق التنقل عبر بلاد البحر الابيض المتوسط والبلاد الشرقية تماما: وشرع المواطنون يتنقلون من الاقاليم الى قلب الامبراطورية ، حيث راحوا يلتقون ويختلطون في رابطة جديدة .

واكثر من هذا اوجد اتصالهم مع العرب كثيرا من المسلمين المهتدين الى الاسلام ، وكثيرا من روابط الزواج فيما بينهم . وهكذا اصبح ظهور النظام الاسلامي بصفة حتمية ، صاحب ثقافة متعددة ومتداخلة معا ، رسمت اطر التقاليد ومحتوياتها المتنوعة لايجاد حضارة حديثة .

## عقيدة الاسلام

لقد نجمت عن هذا التفاعل مدنية فعالة ، ذات صفة فريدة ، تعود في اعظم قسم منها ، الى القوة الثانية التي اطلقها العرب في فتوحهم . وتعني بها قوة العقيدة الاسلامية، لقد جلب العرب الفاتحون الدين الاسلامي معهم . وكان الاسلام عاملا حاسما في عملية الخلق الثقافي . كما كان الاسلام ذاته ، وبصفة رئيسة ومؤثرة ، انجازا عربيا خالصا .

وتغدو اهمية هذا الامر جلية ، حين نتذكر كيف ان الفاتحين الاجانب غالبا ما تبتلعهم الشعوب التي اخضعوها .

لقد حكم الغزاة الذين غزو الصين بالتتابع ، من امثال المغول والمانشو ، « المملكة السماوية » . لكنهم في النهاية اصبحوا « صينيين » في لغتهم ام في ثقافتهم ، ولم يعد في الامكان تمييزهم عن رعاياهم .

وقد تكون نتيجة ذلك اما اساوبا مميزا للثقافات الخاضعة تنقصه الصفة المميزة له . او تجزئة المملكة الجديدة الى عناصر ثقافية منفصلة ، لا يمكن ان تساهم بشيء ما الا في الحكم الانبراطوري.

غير انه لما كان الفتح العربي فتحا اسلاميا وعسكريا في ذات الوقت ، فقد حال دون ظهور هذا النوع من الثقافة التي لا شكل لها . فما ان يتم فتح بلد ما حتى يصبح جزءا من « دار الاسلام » اي جزءا يخضع للحكم الاسلامي ، ويستطيع فيه المسلمون ان يمارسوا عقيدتهم الاسلامية دون ادنى عائق .

ولم يكن مثل هذا يعني — منذ البداية — بان كل الشعوب الخاضعة ، او الاغلبية منها ، قد اصبحت مسلمة ، وانما يعني ان الطريقة او الشريعة الاسلامية غدت هي المؤسسة المقبولة للدولة والمجتمع معا .

لقد صور الاسلام نفسه بمثابة اطار للحياة الانسانية فلم يكن نشاط الفرد ، او المجتمع بغريب عنه . فقد كان تصوره لله ، وللانسان ، وللمجتمع معقدا ، ويعتمد على السلطة الالهية ، وهي « هبة » التجربة الانسانية التي كانت تقف في المركز ، وتفرض الحكم على كل ما قد يمارسه الناس من اعمال .

لقد كان من المهم في الوقت الذي كان فيه الاسلام يتقن عمله، أن تتم حماية الشريعة ، وليس الفقه ، وان تطبق بكل صرامة . فعلى الناس ان يعيشوا داخل المجتمع الاسلامي الذي ينبغي ان يكون مجتمعا اسلاميا كاملا ، لا مجرد أن يمارسوا الشعائر الاسلامية ، في اي مجتمع قد يجدون انفسهم فيه .

ترى ما هو الشكل والمحتوى اللذين يجب ان يكون عليهما المجتمع الاسلامي في العالم الاجنبي الذي اوجدته الفتوح العربية ؟ . لقد جوبه العرب في البلدان الجديدة باوضاع ومشاكل ومواد كانت غير معروفة في الحياة القبلية ، وكانت تتعارض في الغالب معارضة واضحة مع البادىء والالتزامات الاسلامية المتشددة .

ففي ميدان التفاعل بين هذه العناصر كانت الصفة الاسلامية لها الاسبقية . ومع انه كان في استطاعة المسلمين ومقدورهم ان يستخدموا ، بل استخدموا ذلك حقا ، المواد اليونانية ، والبيزنطية ، والهلنستية ، والسريانية ، والفارسية في بناء حضارتهم الحديثة ، الا ان مثل هذا الاستخدام كان تحت اشراف الاسلام ورعايته ، وكان يقصد به خدمة الاغراض الاسلامية .

قد تبدو الثقافة الاسلامية في الظاهر ثقافة صوفية بشكل رفيع ، ومع ذلك كانت في حقيقتها وجوهرها ، ثقافة مختارة ومنقاة ، احتضنت المواد ونبذتها ، وفقا لتلائمها مع طبيعة المجتمع الاسلامي وغاياته .

ولقد آثر الاسلام نفسه بهذه العملية . فهو كنظام ثقافي له الهيمنة التامة في القرون الوسطى ، قد اقتبس الكثير من عناصر الفلسفة الافلاطونية الحديثة والمنطق الارسطاليسي ، والقانون الروماني ونحن نقتصر هنا على تسمية بعض المؤثرات العظمى.

ومع ذلك فان هذا لم يغير من الحقيقة القائمة وهي ان الاسلام كان في جوهره ، وصفته ، واصله ، دينا عربيا . فلقد شوهدت الصورة الاولى للاسلام ، ومنحت للعالم ، على يد رسول عربي . وكان تأكيد الاسلام الرئيس على المجتمع ، له جذوره في الحياة

القبلية العربية الخالدة . ذلك لان مفاهيمه الاساسية قد تم التعبير عنها في مفردات تجربة عربية .

فمهما كانت المواد غير العربية التي استعملت في تقويم الاسلام كنظام ؛ فان صفة الاسلام كنظرة عربية الى الحياة ، وكعقيدة ؛ لم تضع ولا يمكن ان تضيع . فقد يضمحل الحكم العربي ؛ وقد تنحسر السيطرة العربية التي شهدها العالم الاسلامي في القرون الوسطى ؛ ولكن تأثير العرب في الاسلام لا يمكن ان تطمس آثاره .

لقد استطاع العرب بعقيدتهم الاسلامية ان يشاركوا مشاركة واسعة لا تضاهى في تكوين الثقافة الاسلامية ، والثقافة العربية على حد سواء .

## اللغة العربية

ومما يتصل اتصالا وثيقا بنفوذ الانبراطورية الواسع ؛ والنفوذ المطلق للشريعة الاسلامية ؛ مشاركة العرب الاخرى في ظهور ثقافة جديدة وذلك عن طريق لغتهم . اما كيف نفذت اللغة العربية ؛ وبشكل لا يلين ؛ الى تطوير الثقافة الاسلامية ؛ فذلك امر يمكن اظهاره بحقيقة ان النظام الذي تطور بصفة نهائية ، ما يزال يشار اليه على انه « مدنية عربية » و « فكر عربي » ؛ على الرغم من الحقيقة الواضحة وهي ان الكثير من المنجزات الثقافية لهذه المدنية العربية لم تحدث تحت رعاية عربية . ذلك لان غير العرب ؛ بل وحتى غير المسلمين ؛ قد ساهموا مساهمات فعالة ؛ لكنهم مع ذلك نفذوا هذه المساهمات باللغة العربية مهما كانت الصفة العرقية لمجتمعهم السابق .

قد يبدو غريبا ان تقوم لغة الفاتحين العرب بمثل هذا الدور ذلك لان عالم البحر الابيض المتوسط ؛ كان غنيا وقديما بتقاليده القديمة في اللغة والادب . فاللغة اليونانية من اعظم اللغات العالمية . وكانت في ذلك الوقت ما تزال مستعملة في البلاد البيزنطية ؛ وكانت آدابها الكلاسيكية ما تزال حية . وهي بالمقارنة مع لغة افراد القبائل الفاتحين ؛ والقادمين من الصحراء ؛ تبدو غريبة وبدائية .

لقد كان للعرب تقليدهم في الغاء الشعر ارتجالا ؛ ولم تكن قواعد النحو عندهم قد سبر غورها بعد . وظلت قوانين ادبهم في حاجة الى التطور . وكان النطق باللغة العربية يعكس التجربة الساذجة والمحدودة لابناء الصحراء . ولم تكن اللغة العربية قد برهنت بعد ؛ على قدرتها في التعبير عن الافكار الاجنبية والمواضيع المجردة ؛ والمصالح الادبية لمجتمع متقن .

ومع ذلك فقد استطاعت اللغة العربية ان تذلل هذه الصعوبات ؛ وان تصبح بسرعة هي اللغة السائدة للثقافة والمعرفة في العالم الاسلامي الناهض ؛ وقد استطاعت ان تحقق ذلك لانها كانت اولا لغة الفتح والعقيدة مما ذلك لان اولئك الذين تدفعهم اعمالهم الى الاتصال مع العرب ؛ او اولئك الذين كانوا يتطلعون الى تحبيب انفسهم الى حكامهم الجدد ؛ لم يستطيعوا ان يتخلصوا من استعمال اللغة العربية كما ان احدا لا يستطيع ان يكون مسلما دون ان يفهم بعض الشيء من اللغة العربية .

كان واقع الاسلام كاداة اللغة العربية ؛ امرا راسخا ؛ ذلك ان القرآن مصدر الايمان والطاعة ؛ كان مكتوبا باللغة العربية ؛ ولا تمكن ترجمته الى اي لسان آخر . فقد كانت شعائر الاذان والصلاة العامة باللغة العربية . وقد تطلب تفسير القرآن وفرائض الدين من اولى العلوم العربية ؛ كما ان حقيقة اختيار القرآن للغة العربية كلغة للوحي ؛ قد جعل دراسة قواعدها واستعمالها ؛ ضرورة دينية .

ومع ذلك فان الشيء الذي رفع اللغة العربية الى منزلتها السامية في الثقافة الاسلامية كان اعظم من الفتح ؛ فعلى الرغم من صفتها الاصلية كلغة سحرية ؛ لعبت اللغة العربية دورا ملموسا كوسيط بين المجتمعات المعقدة والمجتمعات المركبة ؛ لقد كانت تحتفظ ؛ وبشكل قوي ملحوظ ؛ بكيان اللغات السامية التي ترتبط فيها اجزاء الكلام ارتباطا وثيقا وجليا .

ففي مقدورها ان تبتدع كلمات من صيغ الافعال الموجودة . وان مقدرتها على دمج ظلال المعنى في تعبير مؤثر فريد ؛ قد جعل منها اللغة الحية والصحيحة معا . واذ اتقنت هذه اللغة على ايدي النحاة ؛ وعززت بالتحدي الذي واجهته من الافاق الجديدة ؛ اصبحت هي الاداة الصائبة للفكر وللمعرفة .

فلو كانت اللغة العربية تعوزها المرونة ؛ لما استطاع حتى نسغط الفتوح ؛ ولا الانتفاع بالدين ؛ ان يهيء لها مكانتها المسيطرة في العالم الاسلامي المترامي الاطراف ؛ والمتعدد اللغات .

لقد كانت تأثيرات اللغة العربية في الثقافة المهيمنة عميقة واسعة . ذلك لان اللغة العربية قد وفرت الوسط المطلق للاتصال الذي ترجم التكوين

السياسي المتداخل لشعوب متباينة ، الى ثقافة يشارك فيها الجميع بصفة عامة .

ومثلما نقلت اللغة اللاتينية في العصور الوسطى ، واللغة الانكليزية في الهند(٥) تغلبت اللغة العربية في الدولة الجديدة على اللغات والآداب المحلية ، لكي تخلق مملكة حديثة ، وعالمية ، ومثقفة، لا يستطيع فيها الفلاسفة الفرس ، والعرب المختصون بعلوم الدين ،والاطباء اليهود والمسيحيون، والرياضيون الهنود ، أن يتكلموا بلغة مشتركة واحدة حسب ، بل وان يكون لهم الاحساس بالمساهمة في اقامة نظام ثقافي مشترك .

وفضلا عن ذلك فان استعمال اللغة العربية ، واختيار حروفها من لدن اللغات الاسلامية غير العربية(٦) كان يؤلف نوعا من فاصل ثقافي يفصل العالم الاسلامي عن المدنيات الاخرى .

---

(٥) لا مجال قط للمقارنة بين ما فعله العرب المسلمون اثناء فتوحهم ، وما فعله الانكليز حين استولوا على الهند وكثير من الاقطار الاخرى المحيطة بها ، ذلك انهم في القارة الهندية فرضوا لغتهم فرضا على السكان المحليين،على غرار ما فعله العثمانيون في عهد حكومة الاتحاد والترقي ، في العراق وبقية البلدان العربية التي كانت خاضعة للعثمانيين، اما العرب المسلمون فانهم لم يفرضوا لغتهم بالقوة ابدا ذلك لان اعتناء الشعوب غير المسلمة الى الاسلام كان يتطلب منها أن تكون ملمة باللغة العربية لغة القرآن ، كيما تؤدي بها الفرائض الدينية ، وكيما تستطيع ان تماشي التطور الذي احدثه الاسلام في الشعوب التي دخلت في هذا الدين الجديد ، الذي لم تعهد البشرية مثيلا له في التسامح ، والعدل ، والمساواة . وهذا هو الذي ثبت قوائم الدولة العربية الاسلامية ، واشاد اركان الحضارة العربية الاسلامية ، حيث وضع العلماء من غير العرب كل مؤلفاتهم وعلومهم باللغة العربية مختارين وبمطلق الحرية .

(٦) يقصد بذلك استعمال الحروف العربية في الكتابات الهندية والفارسية والتركية قبل ان يعمد اتاتورك الى استعمال الحروف اللاتينية .

فقد كان المسافر من اوربا ، او من الشرق ، يعرف على الفور انه ما ان يمر خلال العالم الاسلامي حتى يشبع ضمن ثقافة مغايرة . لم تكن لغتها ولا كتابتها ، تمت باية صلة الى أي شيء كان يعرفه ، فهذا الفاصل اللغوي ذاته ، قد ابعد الشعوب نفسها ، عن ثقافاتها الماضية الخاصة بها ، ومنحها الاحساس بهويتها ، وادراك الفرق بينها وبين الشعوب الاخرى .

وكان للغة العربية تاثير اخر في نظام الثقافة الاسلامية ، ولو ان هذا التاثير مغر ، وان من العسير تحديده . ففي هذا اليوم حسب ، اخذنا نفسر ونقيس شيئا ما من العلاقة بين «الوسيط والرسالة» غير اننا نعرف ان الشكل الخالص لاية لغة يؤلف ويضفي صفة للافكار التي يعبر عنها بتلك اللغة ، وفي العقول التي تستعملها .

فالصفات المميزة الرئيسة للغة العربية ، وغنى الفاظها ومحتواه ، والاسلوب الخاص بها للتعبير عن فكرة ما ، وقابليتها للوزن والايقاع ، كل هذه الصفات قد تركت طابعها على النتاجات العلمية ، وعلى العقول الملمة بالمعرفة ، ومن ثم على « شذى » العالم الثقافي الاسلامي .

وهكذا فان الصفة الفريدة للثقافة الاسلامية خلال العصور الوسطى ترجع بصفة جزئية الى حقيقة ان هذه الثقافة كانت تؤدي عملها باللغة العربية .

وكما هو الامر بالنظر الى المساهمة التي اداها الاسلام ، فان تضاؤل تأثير اللغة العربية ونفوذها ، قد حقق « تعريب » العالم القائم في العصور الوسطى وبقي هذا التعريب الى وقت طويل بعد انقضاء فترة الحكم السياسي العربي .